معالم منهج القرآن الكريم

في بناء الإنسان فكريا

دراسة تفسيرية

إعداد الدكتور

ربيع يوسف شحاته الجهمي

الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن الكريم

بجامعة الأزهر، المشارك بجامعة تبوك بالسعودية

معالم منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا دراسة تفسيرية

ربيع يوسف شحاته الجهمي

الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن الكريم- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالأسكندرية - جامعة الأزهر، المشارك بجامعة تبوك بالسعودية

البريد الإلكتروني: rabie.Youssef@azhar.edu.eg

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

الملخـــص

لقد أودع الله تعالى في القرآن الكريم المنهج الأمثل لبناء الإنســان بناءً كاملا، موافقا للفطرة والعقل، صــالحا لكل زمان ومكان، شــاملا لكل جوانبه، ليكون مؤهلا لأعلى درجات الكمال البشــري في الدين والدنيا. ومن أهم جوانب هذا المنهج العظيم: منهجه في بناء الإنســان فكريا؛ لأن الإنسان أسيرٌ لفكره وتصوراته، كما أنه محاط بمذاهب وتيارات منحرفة شتى، تنأى به -إن اتبعها- بعيدا عن الصراط المستقيم.وقد أجمل هذا البحث معالم منهج القرآن في بناء الإنسان فكريا في ثلاثة معالم: أولها: العناية بالعقل، وثانيها: تعظيم أصــول الدين، وثالثها: قيامه على الوسطية والاعتدال. وقد تمثلت عناية القرآن بالعقل في تشريفه بالتكليف، والمحافظة عليه من كل ما يفســده ماديا أو معنويا، وفي تحريره من التقليد والتعطيل، وتربيته على المنهج العلمي الصــحيح، وحثه على كل ما ينمِّيه ويزكِّيه. وتمثل منهجه في تعظيم أصــول الدين في الأمر باتباعها، ووجوب تقديســها، ووجوب الرجوع لأهل العلم، وتحريم الخوض في الدين بغير علم. وتمثل منهجه في بناء الفكر على الوسطية في تقريره لوسطية العقيدة والشريعة والأخلاق؛ فقرر وضــوحها جميعا، ويســرها، واقعيتها، وبعدها عن الغلو أو التقصــير، وثباتها ومرونتها، وموافقة للفطرة السليمة، وللعقل الصحيح.

وعلى هذه المعالم الثلاثة قام الفكر الإسلامي، فكان -ولا يزال- مثالا للفكر الوسطي، فوسع أمم الأرض على اختلاف مللهم وأزمنتهم وأماكنهم، وأفاد البشرية في كل فروع العلم والمعرفة.

الكلمات المفتاحية: منهج – القرآن الكريم - بناء – الإنسان فكريا.

Characteristics of the Quranic Approach to Build Man Intellectually: An Exegetical Study

By: Rabee Youssef Shehata Al-Jahmy
Associate Professor of Interpretation and Quranic Sciences
Al-Azhar University, Egypt
& The University of Tabuk, Saudi Arabia.
e.mail: rabie.Youssef@azhar.edu.eg

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

Abstract

Almighty God has prescribed in the Holy Qur'an an optimum approach to fully build a human being innately and reasonably. A building that is valid for all time and place; all-inclusive to be identified as the highest integrate being in terms of both; religion and life. The most important aspect of this great approach is building a human being intellectually since man is imprisoned within his intellect and thought as well as being surrounded by various deviant doctrines and tendencies which would keep him - if he surrenders - off the straight path. Accordingly, the research has summed up the characteristics of the Qur'anic approach to build a human being intellectually into three major characteristics: the first is caring for the mind, the second is maximizing the principles of religion, and the third is to bring him up as a moderation-based being. The Qur'anic care for the human mind is clearly manifested in honoring it with responsibility and protecting it from anything that may cause corruption whether physically or morally as well as liberating it from mimicry or neglection. Moreover, the Qur'anic approach is keen to raise up the human being in accordance with the proper scientific method and urges him to be keen on everything that would entail development and promotion. The Qur'anic approach to maximize the fundamentals of religion is embodied in the command to follow these fundamentals, observe the obligations to consecrate them as well as the obligation referring to scholars and the prohibition of giving

religious judgments without knowledge. Finally, the Qur'anic approach of building moderation- based thought is evident in establishing the moderate belief, Sharia and ethics as being clear, simple, realistic, far from exaggeration or disregard, constant and flexible and compatible with the innate nature and sound reason. Thus, these three aspects constitute the basic pillars of Islamic thought. Such thought remains a moderate example that harbors all the nations of diverse religions, times, and places. It has clearly helped humanity with all branches of science and knowledge.

Key words: approach - the Holy Qur'an - formation - man - Intellectually.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فإنه من نعم الله تعالى علينا أن جعل القرآن الكريم دستورا للدين ومنهاجا للحياة، ومصدرا للهداية وسبيلا للنجاة، فلا صلاح إلا في اتباعه، ولا نجاة إلا في التمسك بهديه.

ولأن القرآن الكريم هو آخر وحي الله تعالى لهدي الأرض، فقد أودع سبحانه فيه المنهج الأمثل لبناء الإنسان بناءً كاملا، موافقا للفطرة والعقل، صالحا لكل زمان ومكان، شاملا لكل الجوانب؛ ليكون الإنسان -إن اتبعه- مؤهلا للرقي إلى أعلى درجات الكمال البشري في الدين والدنيا.

ومن أهم جوانب هذا المنهج القرآني العظيم: منهجه في بناء الإنسان فكريا؛ لأن الإنسان أسيرٌ لفكره وتصوراته، كما أن الإنسان محاط بمذاهب وتيارات منحرفة شتى، تنأى به-إن اتبعها- بعيدا عن الصراط المستقيم.

ولهذا كان بيان منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان بناءً فكريا فريضة إيمانية، وضرورة حياتية، ليتزودَ العالم، ويعلمَ الجاهل.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث، وقد جعلته بعنوان: (**معالم منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا، دراسة تفسيرية**).

أسباب اختيار الموضوع:

كان من أهم أسباب اختياري هذا الموضوع: توفيق الله تعالى ومشيئته العلية، ومحبة خدمة كتاب الله تعالى، وكذلك الرغبة في إثراء المكتبة القرآنية ببيان معالم منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا، لما نراه من انحرافات فكرية عن منهج القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

لم أعثر –بعد بحث دقيق– على دراسة علمية تناولت موضع البحث الحالي بهذا المنهج، ولا أبانت عن جوانب الهداية فيه.

خطة البحث:

قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة: وتضمنت أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وخطته.

المبحث الأول: حول البناء الفكري للإنسان.

المبحث الثاني: معالم منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا.

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعلم الأول: العناية بالعقل.

المطلب الثاني: المعلم الثاني: تعظيم أصول الدين.

المطلب الثالث: المعلم الثالث: قيامه على الوسطية والاعتدال.

ثم الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج.

ثم فهرس المصادر، ثم فهرس الموضوعات.

والله تعالى أسأل أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يعفو عن تقصيري وزللي، فإني بشر أصيب وأخطئ، فما كان من صواب فمن فضل الله تعالى علي وكرمه، وما كان من خطأ فمن نفسي، ويعلم ربي أني ما تعمدت التقصير، وحسن ظني في الله تعالى أن المجتهد مأجور على الحالين، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول
حول البناء الفكري للإنسان

وفيه:

أولا: مفهوم البناء الفكري.

ثانيا: المراد ببناء القرآن للإنسان بناء فكريا،

ثالثا: أهمية بناء القرآن للإنسان بناء فكريا.

رابعا: أهمية الوسطية في بناء الفكر:

خامسا: خطورة الانحراف الفكري:

المبحث الأول

حول البناء الفكري للإنسان

تقتضينا منهجية الحديث عن معالم منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان بناءً فكريا أن نتناول مقدمات مهمة بين يدي البحث:

أولا: مفهوم البناء الفكري:

البناء الفكري مصطلح معاصر، وهو مركب وصفي لابد من تعريف جزأيه (البناء، الفكري) حتى يُعرف المقصود به.

(أ) **أما البناء:**

فهو لغة: مصدر الفعل بَنَى، وبِنَاءُ الشَّيْءِ: ضَمِّ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ(١). والبِناءُ: المَبْنِيُّ، وَالْجَمْعُ أَبْنِيَةٌ(٢)، يقال: بَنَيْتُ أَبْنِي بِنَاءً وبِنْيَةً وبِنًى، قال تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ [النبأ: ١٢]، والبِنَاء: اسم لما يُبْنَى بناءً، قال تعالى: ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ [الزمر: ٢٠](٣). كما يراد بالبناء إذا أسند إلى الله تعالى: الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وآيات أخر.

والبناء كما يُستعمل في المحسوس يَستعمل في المعنوي أيضا، يقال: بَنَى فلانٌ عَلَى أَهله بِناءً، ورُوي: بأهلِه: زَفَّها وازْدَفَّها، وأصلُه أنَّ الدَّاخِلَ بزوجه كان يَضْرِبُ عَلَيْهَا قُبَّةً لَيْلَةَ دُخُولِهِ لِيَدْخُلَ بِهَا فِيهَا، فَقِيلَ لِكُلِّ دَاخِلٍ بزوجه بَانٍ، فالبِنَاء والابْتِنَاءُ: الدخولُ بالزَّوْجةِ(٤). ويقال: بَنَى كلاماً وشِعْراً، وهذا كلامٌ حَسَنُ المباني، وبَنَى على كلامِه: احْتَذَاه"(٥). وبَنَى يَبْنِي بِنَاءً: في

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: ١/ ٣٠٢. مادة (بنى).

(٢) لسان العرب لابن منظور: ١٤/ ٩٤. مادة (بنى).

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب: ص: ١٤٧.

(٤) الصحاح للجوهري: ٦/ ٢٢٨٦، ولسان العرب: ١٤/ ٩٧. مادة (بنى).

(٥) أساس البلاغة للزمخشري: ١/ ٧٩. مادة (بنى).

العُمران، وبنا يبنُو بَنْيًا: في الشّرف[١].

ومن صفات البناء عموما: الثبوت، قيل: ومن هذا سَمَّى النُّحاة البِنَاء -الحكم الإعرابي- بِنَاءً لأَنه لَمَّا لَزِمَ ضَرْبًا وَاحِدًا مِنَ السُّكُونِ أَو الْحَرَكَةِ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ تَغَيُّرَ الإِعراب، سُمِّيَ بِنَاءً مِنْ حَيْثُ كَانَ الْبِنَاءُ لازِمًا مَوْضِعًا لا يَزُولُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ سَائِرُ الآلاتِ الْمَنْقُولَةِ كالخَيْمة والمِظَلَّة والفُسْطاطِ والسُّرادِقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ[٢].

ويتضح من أقوال أهل اللغة أن البِنَاء يطلق على: الخلق والإبداع؛ في جانب الخالق سبحانه، ويطلق على: الضم، والتأسيس، والثبوت؛ في جانب الخلق، كما أنه يطلق على المعنوي والمحسوس.

واصطلاحا: قال الكفوي: "البِنَاء: وضع شَيْء على شَيْء على صفة يُرَاد بهَا الثُّبُوت"[٣]. وذلك يشمل المعنوي والمحسوس، فيراد به مثلا: وضع اللبنة على اللبنة حتى يكتمل البناء، ووضع الكلمة على الكلمة حتى يتم الكلام، ووضع الفكرة على الفكرة حتى يتم التصور.

(أ) **وأما الفكري**: فهو منسوب إلى الفِكْر.

والفِكْرُ لغة: مأخوذ من الفعل (فَكَرَ) والفِكْرُ: تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ، يُقَالُ تَفَكَّرَ: إِذَا رَدَّدَ قَلْبَهُ مُعْتَبِرًا، وَرَجُلٌ فِكِّيرٌ: كَثِيرُ الْفِكْرِ[٤]. والفَكْرُ والفِكْرُ: إعمال الْخَاطِرِ أو النَّظَرِ فِي الشَّيْءِ، والتَفَكُّرُ: التأمل[٥]. ويقال: لا فِكْرَ لي في هذا إذا لم تَحتجْ إليه ولم تُبال به، وما دار حوله فِكْرِي، وتقول: لفلانٍ فِكَرٌ كلُّها فِقَرٌ[٦].

(١) الكليات: ص٢٤١.

(٢) لسان العرب: ١٤/ ٩٤. (بنى)

(٣) الكليات للكفوي: ص٢٤١.

(٤) مقاييس اللغة: ٤/ ٤٤٦. مادة (فكر).

(٥) الصحاح: ٢/ ٧٨٣، ولسان العرب: ٥/ ٦٥، والقاموس المحيط للفيروزابادي: ص٤٥٨، مادة (فكر).

(٦) أساس البلاغة للزمخشري: ٢/ ٣٢، مادة (فكر).

واصطلاحا: ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول، وقيل: جولان الخاطر في النفس. وقيل: الْفِكر إمعان النّظر فِي الشَّيْء، ولا يقال الفكر إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا روي: (**تفكّروا في آلاء الله ولا تفكّروا في الله** ﷻ)(١)، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الروم: ٨]، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٤](٢).

ثانيا: المراد ببناء القرآن للإنسان فكريا:

مما سبق يتضح أن الفكر عمل عقلي، يشمل كل العمليات الذهنية التي يقوم بها العقل لإدراك المعقولات، والتي تختلف مستوياتها، ولا تتوقف ما بقي الإنسان حيًّا. وليس المراد بالفكر ههنا كل تلك العمليات الذهنية التي يقوم بها العقل، وإنما المراد ما يتصل منها بالاتجاه والمنهج الذي يسلكه الإنسان في معتقداته وتصوراته عن الدين والكون والإنسان.

وعليه يمكن بيان المراد ببناء القرآن الكريم للإنسان بناء فكريا بأنه:

"إعداد المسلم عقليا وروحيا إعدادا وسطيا، يؤهله لتكوين عقيدة صحيحة عن الدين والدنيا والآخرة، ويحصنه ضد التيارات المنحرفة، ويعينه على بناء تصور سليم وإجابة شافية عن كل جديد في الحياة".

ثالثا: أهمية بناء القرآن للإنسان بناء فكريا:

يمكن إيجاز تلك الأهمية في جانبين:

أولهما: الجانب الهدائي: وذلك أن بناء القرآن للإنسان بناء فكريا له الدور الأول في هدايته

---

(١) الحديث: أخرجه الطبراني في الأوسط: ٦/ ٢٥٠، ح(٦٣١٩)، واللالكائي في السنة: ٣/ ٥٨٠، ح(٩٢٧)، والبيهقي في الشعب: ١/ ٢٦٢، ح(١١٩)، عن سالم بن عبد الله عن أبيه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مرفوعا، وإسناده ضعيف، لكن حسنه الألباني بشواهده (ينظر: السلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(٢) يراجع: المفردات: ص٦٤٣، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: ص:٢٦٣ وجامع العلوم في اصطلاحات الفنون للقاضي عبد النبي الأحمد نكري: ٣/ ٣١.

إلى الصراط المستقيم، وتعريفه بالمنهج الوسطي عقيدة وشريعة وأخلاقا، وفي تبصيره وإمداده بالرأي السديد على الأحداث والمواقف الدينية والحياتية، التي لا تنتهي ما تعاقب الجديدان. وبدون ذلك البناء القرآني يتخبط المرء في براثن المعاصي، وغياهب الشك والاضطراب، وربما وقع في ظلمات الشرك أو الكفر، والعياذ بالله تعالى.

وثانيهما: الجانب الوقائي: فإنه من أعظم ثمرات هذا البناء الفكري القرآني تحصين المسلم وحمايته، وبناء جسور متينة للوقاية من أي رأي ضال، أو تيار فكري منحرف، مهما حاول أصحابه تزيين أفكارهم، أو نصب شراكهم.

رابعا: أهمية الوسطية في بناء الفكر الإسلامي:

إن للوسطية الدور الأعظم في بناء الفكر الإسلامي، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد فسرها النَّبي ﷺ بقوله: (وَالوَسَطُ: العَدْلُ)(١).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القلم: ٢٨]، أي: خيرهم وأعدلهم(٢)، أو أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم(٣)، أو أحسنهم وأرجحهم عقلاً ورأيًا، أو أوسطهم سنًّا(٤).

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ**

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: في كتاب التَّفسير: تفسير سورة البقرة، باب قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾: ٦/ ٢١، ح(٤٤٨٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ٢٣/ ٥٥٠، عن كثير من السلف، وهو قول جميع المفسرين. يراجع مثلا: البسيط للواحدي: ٣/ ٣٧٣، ومعالم التنزيل: ١/ ١٧٤، والكشاف: ٤/ ٥٩١، والتفسير الكبير للرازي: ٤/ ٨٤. وغيرها.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٤٤.

(٤) روح المعاني: ١٥/ ٣٦.

أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ ـ أُرَاهُ ـ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ)[1].

قال ابن حجر: "المراد بأوسط هنا: الأعدل والأفضل، كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]"[2].

فالوسطية في الإسلام تعني: "المنهج الأمثل في فهم الدين وتطبيقه، والصراط المستقيم الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، والذي يتفق مع المنهج الإسلامي الصحيح، القائم على الحجة والبرهان، لا على الهوى والظن والبهتان".

إنها تعني التوازن والاستقامة دون إفراط أو تفريط، بين الدين والدنيا، وبين الروح والجسد، وبين الفرد والأمة، وبين العقل والنقل، وبين الفقه والواقع، وبين الاجتهاد والتقليد، ... إلى آخر هذه الثنائيات، وهذه هي أعظم خصائص رسالة الإسلام.

إن أهمية الوسطية في فكر المسلمين تنبع من مكانة الإسلام ذاته في قلوبهم، لأن الإسلام دين الوسطية، في عقيدته وشريعته وأخلاقه، فلا إفراط فيه ولا تفريط.

وإن الفكر الوسطي هو الذي يحث على الالتزام بتعاليم الدين، ويعين على القيام بتكاليفه على المنهج القويم؛ وهو الذي يدل على رقي هذا الدين وسموه، وسماحته وعدالته، وموافقته للفطرة السليمة والعقول المستقيمة. وهو إلى جانب ذلك من أعظم الوسائل لدرء الشبهات ودفع المطاعن التي توجه إلى الإسلام. وهو في النهاية خير معين على تحقيق الاستقامة على الصراط المستقيم.

خامسا: خطورة الانحراف الفكري:

الانحراف الفكري مصطلح معاصر، لدلالته أصل في اللغة وفي الشرع، يقال: "انْحَرَفَ عَنْهُ يَنْحَرِفُ انْحِرَافًا: عَدَلَ عنه، وَحَرَّفْتُهُ أَنَا عَنْهُ، أَيْ عَدَلْتُ بِهِ عَنْهُ. وَإِذَا مالَ الإِنسانُ عَنْ شَيْءٍ يُقَالُ:

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: في كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله: ٤/ ١٦، ح(٢٧٩٠).

(٢) فتح الباري: ٦/ ١٣.

تَحَرَّف وَانْحَرَفَ واحْرَورَفَ، وحَرَفَ الشَّيْءَ عنْ وَجْهِهِ حَرْفًا: صَرَفَهُ، ومنه تَحْرِيفُ الكَلِم عَنْ مواضِعِه، وَهُوَ عَدْلُهُ عَنْ جِهَتِهِ وتَغْيِيرُهُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]"[1].

فالانحراف في أصل اللغة وفي الشرع يدل على الميل عن الوسط والاعتدال والخروج عن جادة الصواب. وظاهر القرآن واللغة يدلان على أن ذلك يشمل والمعنوي والمحسوس؛ ما يتصل منه بالدين، وما يتعلق منه بالدنيا.

وبناء عليه فإن الانحراف الفكري هو: "الميل أو العدول عن حد الوسط والاعتدال، إفراطا أو تفريطا، في كل ما يسلكه الإنسان في معتقداته وتصوراته في جانب الدين أو جانب الدنيا، أو فيهما معا".

ولذلك حاربه الإسلام ومنعه، حين قام على الوسطية في عقيدته وشريعته وأخلاقه، وحين بين آثام الانحراف وخطورته، سواء كان في العقيدة أو العبادة أو الأخلاق. وسواء كان ذلك في جانب الإفراط أو في جانب التفريط.

وإن خطورة الانحراف الفكري تكمن في كونه الأصل لكل المفاسد، ذلك أن الفكر هو المحرك الأول للإنسان، وهو قائده نحو الخير أو الشر، فإذا صلح الفكر صلح سائر العمل، عقيدة وعبادة وأخلاقا، وإذا فسد فسد سائر العمل.

إن الانحراف الفكري في جانب الإفراط مثلا هو الذي انطلقت منه تلك الأفكار الهدامة والتصورات الخاطئة والعقيدة الفاسدة التي تبناها بعض المتشددين، فنصَّبوا أنفسهم مُفتين، ورأوْا أن الحق معهم دون غيرهم، فكفَّروا غيرهم، واستحلوا الدماء البريئة، وسفكوها بغير جريرة؛ ليُوصَمَ دينُ الإسلام بعد ذلك -بسبب فكرهم الضال- بالإرهاب والقتل والتخريب،

(١) يراجع: الصحاح: ٤/ ١٣٤٢، ١٣٤٣، ومقاييس اللغة: ٢/ ٤٢، ٤٣، ولسان العرب: ٩/ ٤٣، وتاج العروس للزبيدي: ٢٣/ ١٣٢، والمفردات: ص٢٢٨، ٢٢٩. مادة بصائر ذي التمييز للفيروز ابادي: ٢/ ٤٥٢، مادة (حرف).

وهو من ذلك بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب!!!.

وإن الانحراف الفكري في جانب التفريط مثلا هو الذي انطلقت منه تلك الدعوات الهدامة التي فرطت في ثوابت الدين وأصوله، فأوَّلت القرآن تأويلا باطلا، يناسب شهواتها ونزواتها وانحلالها، وعملت على استبعاده وتهميشه وتمييعه، وجعله نصا تاريخيا قابلا للنقد، خاضعا للعقل والهوى،!!!؛ ليزعزعوا ثقة المسلمين في كتاب ربهم، وليستبدلوا ثوابت الدين وأصوله بالنفعية والمادية، والتحلل والإباحية، والإلحادية، تحت شعارات حرية الفكر والاجتهاد، والحداثة، وغير ذلك من الشعارات الباطلة.

هذان مثالان في جانب الدين إفراطا وتفريطا، ودونك أيها القارئ الكريم أمثلة كثيرة على الانحراف الفكري في جانب الدنيا أيضا، فمجرد التشبث بالدنيا والتعلق بها والانهماك في ملذاتها على حساب العمل للآخرة إفراط؛ وهو انحراف فكري. وإن التواكل والتكاسل في إصلاح أمر الدنيا تفريط؛ وهو انحراف فكري أيضا.

لأجل هذا كله تضمن القرآن الكريم المنهج القويم لبناء الفكر الإسلامي بناء كاملا، وشاملا، يقوم على الوسطية والاعتدال، ويقي ويحصن من ذلك الانحراف، والذي طبقه المسلمون في عصور الإسلام الزاهرة، فملأوا الأرض عدلا، وسماحة، وعلما ورُقيا، شهد بذلك القاصي والداني.

المبحث الثاني

معالم منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعلم الأول: العناية بالعقل.

المطلب الثاني: المعلم الثاني: تعظيم أصول الدين.

المطلب الثالث: المعلم الثالث: قيامه على الوسطية والاعتدال.

المبحث الثاني

معالم منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا

لقد تضمن منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا معالما كثيرة، ويمكن إجمالها – مناسبة لحجم البحث– في ثلاثة معالم رئيسة: أولها: العناية بالعقل. وثانيها: تعظيم أصول الدين. وثالثها: قيامه على الوسطية والاعتدال.

وفيما يأتي بيان لتلك المعالم في المطالب الآتية:

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

المطلب الأول

المعلم الأول: العناية بالعقل

إن من أَجَلِّ نعم الله تعالى على الإنسان نعمة العقل، الذي جعله الله آلةَ الإدراك، والفهم، والتفكير، والحِكْمة، والتمييز، والحكم على الأشياء، وبه فضَّله على سائر الكائنات، وبه يتحرك الإنسان لأداء مسؤولياته في هذا الوجود.

ولما كان فكرُ الإنسان نتاجَ عقله، جاءت عناية القرآن الكريم بالعقل على رأس معالم منهجه في بناء الإنسان فكريًّا، فخصَّه الله تعالى بالعناية البالغة، وكرَّمه وأنزله منزلة عالية شريفة.

ينبئك عن تلك المنزلة العالية إجمالا: ورودُ مشتقات مادته في القرآن الكريم تسعا وأربعين مرة، وورود مشتقات مرادفاته من (القلب، والفؤاد، والنُّهَى، والحِجْر، واللُّب، ...الخ)، ومشتقات أعماله من (العلم، والفقه، والفكر، والقراءة، والوعي، والتذكر، والتدبر، والنظر، والاعتبار، ... الخ) أكثر من ألف مرة!![1]، وهذا يدل دلالة تامة –لا ينكرها إلا جاحد– على إعلاء القرآن لمنزلة العقل، وعنايته به عناية خاصة.

ولقد كانت هذه العناية من أول لحظة نُبِّئ فيها رسول الله ﷺ، حين نزل على قلبه الشريف

---

(١) يراجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي.، في المواد (عقل، قلب، فأد، نهى، حجر، لبب، علم، فقه، فكر، قرأ، وعى، ذكر، دبر، نظر، عبر).

قولُ الله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلق: ١ – ٥].

جوانب عناية القرآن الكريم بالعقل

تجلت عناية القرآن الكريم بالعقل -آلة الفكر- فشملت كل جوانبه، في صورٍ شتى، تجلُّ عن الحصر، وتربو على الذكر، ولكن يمكن إجمالها في جانبين رئيسين:

أولهما: جانب التكليف والتشريف. **والثاني**: جانب المحافظة والتهذيب. وهذا بيان بشيء من الإيضاح:

أما الجانب الأول: وهو جانب التكليف والتشريف:

فتجلى في جعل القرآن الكريم العقل مناطَ التكليف؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والمعنى: إنا عرضنا الأمانة -التي هي التكاليف الشرعية، من التزام الطاعات وترك المعاصي-على السماوات والأرض والجبال. وعرضها عليهن: من باب المجاز[1]، تعظيما لشأن تلك الأمانة، وأنها من الثقل بحيث لو عُرضت عليهن لأبين حَمْلها إشفاقا منها، فهذا ضرب من المجاز؛ كقولك: "عرضتُ الحِمْلَ العظيم على الدابة فأبت أن تحمله"، والمراد أنها لا تقدر على حمله. و﴿ وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ ﴾ أي: والتزم الإنسان القيام بتكاليفها وأعبائها، مع شدة ذلك وصعوبته على تلك الأجرام التي هي أعظم منه؛ ولذلك وصفه الله بأنه ظلوم جهول: ﴿ إِنَّهُۥ

(١) هذا هو الأوْلى في رأيي، وقد ذكر المفسرون في معنى عرض الأمانة على تلك الأجرام قولان، أولهما: العرض حقيقة، والثاني: أن ذلك من باب المجاز تعظيما لشأن الأمانة، والرأيان مذكوران في أكثر كتب التفسير.

﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾، والإنسان هنا يراد به الجنس، أي: بحسب غالب أفراده الذين لم يراعوها حق رعايتها ولم يقوموا بحقها حق القيام(١).

ولم يكن إباء تلك الأجرام امتناعا واستكبارا، كما صنع إبليس اللعين، فهنَّ مَن أَتَيْنَ طائعين(٢)، وإنما كان إباء إشفاقٍ وخوفٍ كما نص القرآن.

كما لم يكن تحمُّل الإنسان لتلك الأمانة تجرؤا على الله تعالى؛ وإنما كان بهداية وتوفيق منه سبحانه؛ تكريما وتشريفا لذلكم الإنسان الطائع القائم بخلافته تعالى في أرضه، وإعلاء لشأنه، بفضل ما أودعه سبحانه فيه من صفات وخصائص وقدرات خصَّه تعالى بها؛ وعلى رأسها العقل، الذي هو آلة الفهم والإدراك، وأساس التكليف؛ فما أعظمه من تشريف وما أجله من تكريم!!.

ولهذا أجمع الفقهاء على أن العقل شرط التكليف وأساسه، وأن من لا عقل له لا تكليف عليه، وإن كان مسلما بالغا، لقوله ﷺ: (**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثلاثةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتى يَعْقِلَ**)(٣).

* **ومن هذا الباب**: جعل القرآن الكريم العقلَ معيارا للتصرف في المال؛ قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ [النساء: ٦]. قال الطبري بعد أن ساق أقوال السلف في معنى الرُّشْد: "وأولى هذه الأقوال عندي

---

(١) يراجع: جامع البيان للطبري: ٢٠/ ٣٣٦- ٣٤٣، والكشاف للزمخشري: ٣/ ٥٦٤، ٥٦٥، والمحرر الوجيز لابن عطية: ٤/ ٤٠٢، ٤٠٣، والتفسير الكبير للرازي: ٢٥/ ١٨٧، ١٨٨ ، وتفسير أبي السعود: ٧/ ١١٨، ١١٩، والتسهيل لابن جزيء: ٢/ ١٦٠، ١٦١، وغيرها من كتب التفسير.

(٢) قال الله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١].

(٣) يراجع المغني لابن قدامة: ١/ ٢٩٠، ٣/ ٢١٣، ٥/ ١٠٩، ٧/ ٣٧٨، وغيرها.

والحديث: أخرجه: أبو داود في سننه: في كتاب: الحدود، باب: في المجنون يسرق أو يصيب حدا: ٤/ ١٤١، ح(٤٤٠٣)، والترمذي في سننه، أبواب الحدود، باب: ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد: ٤/ ٣٢، ح(١٤٢٣)،عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بمعنى " الرُّشْد" في هذا الموضع، العقل"[١].

وخلاصة القول: أن جعل العقل مناط التكليف له الدور الأعظم في بناء فكر المسلم، وتكوين وعيه؛ إذ به يفهم عن الله تعالى مراده، وبه يعرف الحلال من الحرام، وبه يعرف كيف يطبق شرع الله. وقد أسس هذا لقاعدة عظيمة هي أن الفكر الإسلامي قائم على احترام العقل وتقديره، واعتباره شرطا للتكليف بالشرع، وأن بينهما من الصلة والترابط واللُّحمة ما لا يمكن أن يزال.

وأما الجانب الثاني: وهو جانب المحافظة والتهذيب:

فتجلى في ناحيتين: ناحية الحفظ والوقاية، وناحية التربية والرعاية.

* **الناحية الأولى: وهي ناحية الحفظ والوقاية**:

وقد بلغت عناية القرآن الكريم بها مبلغا عظيما، حتى صارت المحافظة على العقل: إحدى الضروريات الخمس، والكليات الكبرى، والمقاصد العامة في الإسلام. وتمثلت تلك المحافظة والوقاية في الجانبين المادي والمعنوي.

ـ **فحَفِظَه القرآن ماديًا**: بأن شرع له ما يحفظ وجوده، وما يحفظه صحته وسلامته، وتجلى ذلك إجمالا في أمرين عظيمين:

الأول: تحريمه الاعتداء على العقل بالإهلاك:

وهذا الحكم مبني على المفهوم من النصوص الشرعية الكثيرة التي بينت مكانة العقل وقداسته، وأنزلته منزلة النفس، حتى قرر الفقهاء: أن إذهابه في معنى إزهاق النفس، والإلحاق بالبهائم، فيكون بمنزلة الموت؛ لأن العقل أكبر المعاني قدْرًا، وأعظم الحواس نفعًا، فبه يتعلق التكليف، وهو شرط في ثبوت الولايات، وصحة التصرفات، وأداء العبادات، وبه يتميز الإنسان عن البهيمة؛ وبه ينتفع لدنياه وآخرته، ومنافعه أعظم من أن تُحصى؛ ولهذا أجمعوا على وجوب

(١) جامع البيان: ٧/ ٥٥٧.

الدية كاملة في إذهابه[1]؛ قال ابن المنذر: "وأجمعوا أن في العقل دية"[2].

والثاني: تحريمه كل ما يحجب العقل ويغيبه:

حيث حرَّم تعاطي الخمر، وما شابهها؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]. وأكد النبي ﷺ ذلك في قوله: (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ)[3]. وجلد رسول الله ﷺ شاربها؛ فعن أنس رضي الله عنه: (أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ ﷺ جَلَدَ فِي الْخَمْرِ بِالْجَرِيدِ، وَالنِّعَالِ»، ثُمَّ جَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ، فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ، وَدَنَا النَّاسُ مِنَ الرِّيفِ وَالْقُرَى، قَالَ: «مَا تَرَوْنَ فِي جَلْدِ الْخَمْرِ؟» فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا كَأَخَفِّ الْحُدُودِ، قَالَ: «فَجَلَدَ عُمَرُ ثَمَانِينَ»)[4].

وأجمعت الأمة على تحريم شرب الخمر -وما شابهها- وأن ذلك من كبائر الذنوب[5].

وبهذا حفظ القرآن الكريم العقل ووقاه من الفساد؛ لأن الإنسان إذا سَكِر فَقَدَ وعْيُه، فإذا أدمن السُكْر فسد فِكْرُه، وفَقَدَ أشرف شيء فيه وهو العقل، الذي كرمه الله تعالى به، فضيَّع

(١) يراجع: المبسوط للسرخسي: ٢٦/ ٦٩، ٩٩، وبدائع الصّنائع للكاساني: ٧/ ٣١٢، والحاوي الكبير للماوردي: ١٢/ ٢٤٧، والمهذَّب للشيرازي: ٣/ ٢٢٢، والمغني لابن قدامة: ٨/ ٤٦٥، وكشّاف القناع للبهوتي: ٦/ ٥٠.

(٢) الإجماع لابن المنذر: ص١٢٣.

(٣) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: في كتاب: الأشربة، باب: بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام: ٣/ ١٥٨٥، ح(٢٠٠٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) الحديث: أخرجه: البخاري في صحيحه: في كتاب: الحدود، باب ما جاء في ضرب شارب الخمر: ٨/ ١٥٧، ح(٦٧٧٣)، ومسلم في صحيحه: في كتاب: الحدود، باب: حد الخمر: ٣/ ١٣٣١، ح(١٧٠٦) كلاهما عن أنس رضي الله عنه.

(٥) الإجماع لابن المنذر: ص١١٧، والمغني لابن قدامة: ٩/ ١٥٨، والكبائر للذهبي: ص٨٠.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

الفرائض، ووقع في كثير من الآثام والشرور.

والتاريخ شاهد على أنه لم يفلح قانون أو نظام وضعي في حماية العقل من تلك الخبائث، وأن أموالا كثيرة أُنفقت في سبيل ذلك دون جدوى؛ لكن القرآن الكريم بمنهجه المعجز وتشريعه المحكم استطاع ذلك؛ فقد روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: (... **فَإِنِّي لَقَائِمٌ أَسْقِي أَبَا طَلْحَةَ، وَفُلاَنًا وَفُلاَنًا، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: وَهَلْ بَلَغَكُمُ الخَبَرُ؟ فَقَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: حُرِّمَتِ الخَمْرُ، قَالُوا: أَهْرِقْ هَذِهِ القِلاَلَ يَا أَنَسُ، قَالَ: فَمَا سَأَلُوا عَنْهَا وَلاَ رَاجَعُوهَا بَعْدَ خَبَرِ الرَّجُلِ**)(١).

ـ وحفظه القرآن معنويا:

بأن شرع له ما يحفظه من الخلل والاضطراب فحرَّم السِّحر، وما يندرج تحته من الدجل والشعوذة وغيرهما:

قال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة:١٠٢].

فقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ نصان صريحان على أن السحر والعمل به كفر(٢)، وقد عدَّه النبي

(١) الحديث: أخرجه: البخاري في صحيحه: في كتاب: التفسير، باب قوله تعالى: چ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ چ: ٦/ ٥٣، ح(٤٦١٧)، ومسلم في صحيحه: في كتاب: الأشربة، باب: تحريم الخمر: ٣/ ١٥٧١، ح(١٩٨٠) كلاهما عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) يراجع: المحرر الوجيز لابن عطية: ١/ ١٨٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢/ ٤٣، وغيرهما.

ﷺ من الموبقات؛ أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: **الشِّرْكُ بِاللَّهِ**، **وَالسِّحْرُ**، ... الحديث)[1].

وفي بيان خيبة الساحر وخذلانه في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه: ٦٩]. أي: حيث جاء، وأَين أَقبل، وحيث احتال.

ولا يخفى أن تعاطي السحر بعد أنه كفر بالله تعالى، فهو داء يمرض العقول ويصيبها بالاضطراب[2]، ويؤثر عليها تأثيرا محققا، وضرره أعرف من أن يذكر تفصيلا، وفي تحريم القرآن له حماية للعقل من الفساد.

ويلتحق بتحريم السحر كل ألوان الدجل والشعوذة والخرافة، مما يؤثر في صلاح العقل واعتداله، ويؤدي إلى إخلاله بوظائفه المنوطة به، وينزل به إلى مهاوي الانحراف الفكري، أيًّا كان نوعه.

وبهذا حافظ القرآن الكريم على العقل وحماه من كل ما يعيقه عن الغاية التي خلقه الله تعالى لأجلها.

*** الناحية الثانية: وهي التربية والرعاية:**

وقد بلغت عناية القرآن الكريم بها مبلغا عظيما أيضا، حيث حرَّر القرآن الكريم العقل من التقليد والتعطيل، وربَّاه على المنهج العلمي الصحيح، القائم على الحجج والبراهين، وحث على كل ما ينمِّيه ويزكِّيه. ويمكن إجمال ذلك في الآتي:

ومن السحر ما هو كفر ومنه ما ليس بكفر، لكنه كله محرم في الجملة، يراجع: تفصيل حكم السحر في: المغني لابن قدامة: ٩/ ٢٨- ٣٣. وغيره من كتب الفقه.

(١) الحديث: أخرجه: البخاري في صحيحه: في كتاب: الوصايا، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾: ٤/ ١٠، ح(٢٧٦٦)، ومسلم في صحيحه: في كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها: ١/ ٩٢، ح(٨٩) كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ويمرض الأبدان أيضا.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

أولا: تحرير العقل من التقليد والتعطيل:

وذلك ليُبْنَى فكر المسلم بناء صحيحا قويا، حرًّا من كل ما يقيده أو يلغيه؛ مما هو مخالف للدين والعقل السليم والفطرة القويمة، فالفكر الإسلامي لا يقوم على التعصب أو التقليد، أو النظريات الزائفة، اتباعا لمن سبق، أو تعصبا لمن سلف.

وفي سبيل ذلك ذَّم القرآن الكريم التقليد الأعمى والاتباع الأصم، ونعى على أصحابه، بعد أن كان قد وجه عقولهم للنظر في دلائل قدرة الله تعالى في النفس والآفاق، ليستدلوا منها على وجود الله تعالى، ومن ثم وجوب عبادته وحده لا شريك له، ونبذ عبادة كل ما عداه، لكنهم كما أخبر الله تعالى ألغوا عقولهم، وأبوْا إلا تعطيلها؛ متابعة لآبائهم الذين لا يعقلون لأنفسهم شيئا ولا يملكون لها نفعا ولا ضرا.

ـ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وفيه إشارة إلى فساد ما تعلقوا به من متابعة الآباء، فعطلوا لأجله عقولهم وألغوها، بأن من تعلقوا بمتابعتهم لا يعقلون شيئا لهم ولا لغيرهم، ولا يهتدون لخير لهم ولا لغيرهم، فهم إذًا في ضلال مقيم.

وفي التعبير بالمضارع الذي يدل على التجدد والاستمرار في: ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ و﴿ يَهْتَدُونَ ﴾ ما يؤكد بقاء آبائهم على ذلك ما داموا على هذا الباطل، وأنهم باقون معهم مستمرون في ذلك الجهل وعدم الهداية.

ـ وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان: ٢١].

وهنا إشارة أخرى، تتمثل في استيلاء الشيطان على عقولهم لمَّا عطلوها تعصبا لآبائهم، وبيان أن الشيطان لا يدعو في الحقيقة إلا إلى عذاب السعير، وإن بدا في الظاهر داعيا إلى نفع أو متاع.

- وقال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٢ - ٢٤].

وهنا إشارة جديدة أيضا، تكمن في إحالتهم مرة أخرى إلى عقولهم ليدركوا الحق ويبصروه، تتمثل في دعوة النبي ﷺ إياهم ليقارنوا بعقولهم بين ما وجدوا عليه آباءهم وما جاءهم به رسول الله ﷺ؛ لكنهم جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا!!!.

ولما كان الدين قائما على إعمال العقل، كان تعطيله جناية عليه، وسببا لفقدان من عطَّله الأهلية بين البشر، وإلحاقه بالبهائم السائمة التي لا تعقل. نرى ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

نعى الله تعالى على أولئك الذين عطَّلوا عقولهم وجوارحهم عن معرفة الحق وقبول الهدى، وحكم بأنهم أشبه بالبهائم التي لا تعقل، بل أشد، والمراد بالقلوب هنا: العقول، بدلالة قوله تعالى: (لا يفقهون بها).

لما عطَّل هؤلاء عقولهم صاروا كالأنعام المسخرة، التي لا تعقل الخيرَ من الشر، فتميز بينهما، بل هم أشد ذهابا عن الحق، حيث أكرمهم الله بالعقول فعطلوها، ورزقهم الفهم فتركوه، فالبهائم أسدُّ منهم، وهم أضلُّ منها؛ لأن البهائم تهرب من المضارِّ، وتطلب لأنفسها من الغذاء الأصلح، وهؤلاء مع ما أعطوا من الأفهام والعقول المميِّزة بين المصالح والمضارّ، تركوا ما فيه صلاحُ دنياهم وأخراهم(١).

(١) يراجع: جامع البيان للطبري: ١٣/ ٢٨٠، ٢٨١، والمحرر الوجيز لابن عطية: ٤/ ٢١١. وغيرهما.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ثانيا: تربية العقل على المنهج العلمي القائم على الحجج والبراهين:

وقد تجلى ذلك في صور كثيرة، أذكر منها ما يأتي ببيان مجمل:

(أ) تربية العقل على الفهم واتباع البرهان:

حيث ربى القرآن الكريم العقل على روح الموضوعية في الفهم والنظر، واتباع البرهان، ونبذ التعصب القائم على غير الحجج والبراهين؛ وذلك واضح جلي في مشاهد عديدة، منها:

١ـ **مناقشة القرآن الكريم للمعاندين في عقائدهم:** حيث ناقش القرآن الكريم المشركين وغيرهم وجادلهم بالحجة والبرهان، وأحالهم إلى عقولهم، وبين فساد عقائدهم، فلم يسقْهم القرآن إلى الإيمان سَوْقا، أو يجبرهم عليه قسرا، ولم يعدْهم أو يمنيهم، وإنما أقام الحجج على عقولهم، ووضع البراهين بين أيديهم. ودعاهم إلى الحق بألطف بيان وأجمل أسلوب.

نجد ذلك في قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]، وقول الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المقام، حيث نرى عجبا عجابا في محاجة القرآن الكريم لهؤلاء المعاندين، ومناقشته إياهم في عقائدهم، وإحالتهم إلى عقولهم، ومجادلته إياهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والحجج الناصعة والبراهين القاطعة، التي لا يمكنهم ردها.

ولو تناولنا بالبحث ما تضمنته آية واحدة منها من الحجج والبراهين، واستعرضنا الوجوه في بيان بلاغة أسلوبها وروعة بيانها ما وسعها هذا البحث ولا غيره. ولخرجنا عن هدفه ومقصوده.

ولا ريب أن في استخدام القرآن الكريم لتلك الحجج والبراهين تربية لفكر المسلم على المناقشة والحوار بالحجج والبراهين؛ نصرة للحق وتعرية للباطل.

٢ـ طلب القرآن من المعاندين أن يأتوا بالبرهان على ما يزعمون:

نرى ذلك جليا في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل: ٦٤]، وغير ذلك من الآيات الكريمة.

و"البرهان: أوكد الأدلّة، وهو الذي يقتضي الصدق أبدا لا محالة"(١)، و"الفرق بينه وبين الدليل: أن البرهان: هو الحجة القاطعة المفيدة للعلم، وأما الدليل: فإنه يفيد الظن"(٢).

ومن هنا نلحظ السر في تعبير القرآن بلفظ (البرهان)، وهو إفحامهم وإقامة الحجة عليهم بأنهم كاذبون في كل ما يدعون؛ لأنه يستحيل أن يأتوا بحجة قاطعة تقتضي الصدق لا محالة على شيء مما يزعمون.

وفي هذا المنهج القرآني تربية عظيمة لفكر المسلم على ضرورة الفهم واتباع البرهان في كل ما يأتي وما يذر، وأن يكون منهجه وديدنه قائما على الحجج، لا على الأقوال والآراء والأهواء التي لا نصيب لها من الحق، ولا برهان عليها من العقل.

٣ـ نعْيُهُ على المجادلين بغير حجة أو برهان:

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ

(١) المفردات للراغب: ص١٢١.

(٢) معجم الفروق اللغوية للعسكري: ص٩٧.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر: ٥٦].

(ب) تطهير العقل من اتباع الأهواء والظنون:

لأنهما يحجبان عن الحق، ويحُولان دون الوصول إلى العلم الصحيح والمعرفة الحقيقية. فالهوي: "ميل النفس إلى الشهوة، سمّي بذلك لأنّه يَهْوِي بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَةِ"(١). والظن: "اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم"(٢).

ـ ففي ذم اتباع الهوى والتحذير منه يقول تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤]. والمعنى: "أرأيت يا محمد من اتخذ إلهه شهوته التي يهواها!!، وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به، وأخذ الآخر يعبده، فكان معبوده وإلهه ما يتخيره لنفسه"(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴾ [المؤمنون: ٧١]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وآيات كريمة أخرى كثيرة تذم اتباع الهوى، وتحذر منه.

ـ وفي ذم الظن والتحذير منه يقول تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يونس: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النجم: ٢٨].

---

(١) المفردات: ص٨٤٩. باختصار.

(٢) المفردات: ص٥٣٩. باختصار.

(٣) جامع البيان: ١٩/ ٢٧٤.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ومعنى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾: "إن الشك لا يغني من اليقين شيئًا، ولا يقوم في شيء مقامَه، ولا ينتفع به حيث يُحتاج إلى اليقين"(١).

وبهذا النهج حافظ القرآن الكريم على العقل وصانه من الظنون والشكوك التي تهوي به إلى مكان سحيق.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(ج) بيان حدود العقل التي لا ينبغي له تجاوزها:

وهنا يظهر المنهج الوسطي للقرآن الكريم في تعامله مع العقل، فمع أن القرآن الكريم أنزله منزلة عالية رفيعة، إلا أنه حرَّم عليه الخوض في قضايا لا طاقة له في الوصول إلى حقيقتها، ولا قِبَل له بتصورها، وهي قضايا الغيبيات؛ مثل التفكر في كنه الذات الإلهية، وقضية الروح، وقضية الساعة، وأمثالها، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، والعقل لا يمكنه تصور هذه الغيبيات الخارجة عن نطاق الحواس كلها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

فإذا نُهِيَ النَّبِي ﷺ مع حكْمتِه وعِلْمِهِ وتوفيق اللهِ إيَّاهُ - أن يقول بما لا يعلم، فكيف سائر أمَّتِه والمسرفين على أنْفُسِهم. يقال: قَفَوْتُ الشيءَ أقْفُوه قَفْواً: إذا اتبَعْتَ أثرَه، فالتأويل لا تُتْبِعَنْ لِسانَك من القول ما ليس لك به علم"(٢). وفي ذلك تربية لفكر المسلم على عدم الخوض فيما لا علم له به.

وقال الله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ [طه: ١١٠]، وقال تعالى:﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾[الشورى: ١١]،وقال تعالى:﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥].

---

(١) جامع البيان: ١٥/ ٨٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣/ ٢٣٩.

وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

إلى غير ذلك من قضايا الغيبيات الواردة في كثير من الآيات، والتي حرَّم القرآن على العقل الخوض فيها، لا ليَحْجُرَ عليه، ولكن ليحدد له مجاله الذي خُلق لأجله، ويمنع عنه ما يفسده إن حاول البحث فيه، حفاظا عليه، ورحمة به من التكليف بما لا يطاق.

ومقام العقل في ذلك كله التسليم والإذعان، وباب النظر والتدبر والتفكر والبحث مفتوح بعد ذلك في النفس وفي الآفاق.

أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ ﷺ فِي خَرِبِ المَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ تَسْأَلُوهُ، لاَ يَجِيءُ فِيهِ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَنَسْأَلَنَّهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَالَ يَا أَبَا القَاسِمِ مَا الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ، فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ، قَالَ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٥])[1].

فحقيقة الروح مَحجوبةٌ عن العقل، وهذا الذي صرَّح به القرآن الكريم، ومع هذا لم يُعرف أن عاقلا أنكر وجودها، مع عجز كل العقلاء عن معرفة ماهيتها، فوجب على العقل قبول حقيقتها وإن لم يدرِكْها، وعدم الخوض فيما حُجِب عنه فيها، والتسليم والتصديق بما جاء عنها في الكتاب والسنة.

وبهذا المنهج القويم وضع القرآن العقل في مكانه اللائق به بلا إفراط ولا تفريط، حفاظا عليه من الفساد، ورحمة به من التكليف بما لا يطاق. ولولا ما جاء به القرآن من توجيهات ضبطت

(١) الحديث: أخرجه: البخاري في صحيحه: في كتاب: العلم، باب قوله تعالى: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا: ١/ ٣٧، ح(١٢٥)، ومسلم في صحيحه: في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: سؤال اليهود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الروح: ٢/ ٢١٥٢، ح(٢٧٩٤).

ميزان العقل في هذه الأمور الغيبية، وحددت مجاله الذي خُلق لأجله، لبقي الناس في حيرة وفي ضلال.

ثالثا: تنمية العقل وتزكيته:

حيث اشتمل القرآن الكريم على فيض من الآيات الكريمة التي تضمنت ما ينمي العقل ويزكيه، ويزيد من قدراته، ويمكن إجمال ذلك في ثلاثة أمور:

(أ) **الحث على النظر والتفكر في آيات الله تعالى** في كتابه المسطور (القرآن الكريم) وفي كتابه المنظور (الكون):

حيث حث الله تعالى على تدبر كتابه الكريم في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩].

وحث على النظر والتفكر في النفس وفي الآفاق، في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣].

(ب) الحث على طلب العلم، والثناء على العلماء:

حيث كانت أول آيات تنزل على قلب النبي ﷺ هي قول الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ١ – ٥].

وأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتزود من العلم فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]. وحث على الرجوع لأهل العلم في كل معضلة فقال تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

وبين سبحانه أن لأهل العلم عنده درجات عالية، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١]. وأخبر سبحانه أن العلماء هم أهل الخشية منه تعالى، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تحث على طلب العلم، والتي تثني على العلماء. مما له أثر عظيم في تنمية العقل وتزكيته.

(ج) **التعقيب على آيات كثيرة بالحث على إعمال العقل:**

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٤]، وآيات أخرى كثيرة.

وهذا كله حث وحض على إعمال العقل، وتدريب عملي له على تدقيق النظر، والتدبر في كتاب الله تعالى، وفي كونه الفسيح، واستثارة ملكة التفكير والبحث فيه، لفتح آفاق إيمانية جديدة قائمة على الاقتناع العقلي، وفي هذا كله ما يزكي العقل وينميه ويزيد من قدراته على التفكير والبحث.

هذه بعض جوانب عناية القرآن الكريم بالعقل؛ آلة الفهم والفكر في الإنسان، وقد تبين مما سبق كيف حفظه القرآن الكريم ورعاه أيما رعاية، حيث كان صلاح الإنسان في الدارين مرهون

بصلاح فكره، وصلاح فكره تابع لصلاح عقله.

لهذا أنزل القرآن الكريم العقل منزلة عالية لم توجد في أي نظام أو تشريع آخر. لقد كرمه وشرفه وأناط به التكليف، وشرع له ما يحفظ وجوده وصحته وسلامته، وحرَّره من التقليد والتعطيل، ومن كل ما يمنع من الوصول إلى الحق، كاتباع الأهواء والظنون، ورباه على الفهم والاقتناع القائم على الحجج والبراهين، وحثه على النظر والتفكر في آيات الله، ....الخ.

ثم كلَّل هذه العناية بأن أقامه على الوسطية السمحاء، حين أنزله تلك المنزلة العالية، ومنعه في نفس الوقت من البحث فيما لا يعلم ولا يقع تحت دائرة إدراكه وفهمه، كالخوض في الأمور الغيبية؛ فحفظه بذلك من الخلل والفساد.

فكانت هذه العناية بالعقل أصلا عظيما في بناء الإنسان فكريا.

* * * * *

المطلب الثاني

المعلم الثاني: تعظيم أصول الدين

توطئة:

إن البناء الفكري لأي أمة من الأمم إنما يقوم على مدى تعظيمها لأصول تراثها وثقافتها، وتقاس مكانتها بين الأمم بمدى محافظتها على ذلك وقيامها به، فإذا فرَّطت فيه صارت أمة ضعيفة هزيلة، لا هوية لها، وآن لها أن تذوب في الأمم. هذا بالنسبة لأمم تكوَّنت ثقافتها من نظم وقواعد وضعها الفكر البشري، الذي يخطئ أكثر مما يصيب؛ ضرورة أنه ليس محفوظا بالوحي الإلهي.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

أما بالنسبة لأمة الإسلام فالأمر مختلف تماما؛ حيث حفظ الله لها دستورها الإلهي الذي قامت عليه ثقافتُها، ونبت وترعرع في أحضانه فكرُها، وجعل تعظيمها لأصولها التي قامت عليها جزءا من إيمانها، فكان هذا أقوى دافعٍ وأكبر عاملٍ لقيام فكرها على أسس سليمة قوية راسخة، حتى تميزت بذلك وفاقت كل الأمم؛ لقيام فكرها على أسس ثابتة، وأصول راسخة.

وأعني بـ(أصول الدين): أصول التشريع المتفق عليها: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، والقياس[١]، (المتضمنة أصول العقيدة، وأصول العبادات، وأصول المعاملات، وأصول الأخلاق)، ولست أعني بها علم (أصول الدين) المشتمل على مسائل العقيدة فحسب.

أما القرآن والسنة: فهما محل إجماع من الأمة على وجوب اتباعهما، وتحريم مخالفتهما، وأما الإجماع والقياس: فهما محل اتفاق من جمهور علماء الأمة على وجوب اتباعهما ، وتحريم مخالفتهما أيضا [٢].

وأعني بتعظيم القرآن لأصول الدين: أنه أوجب اتباعها، والوقوف عند حدودها، وحرم

---

(١) يراجع: المستصفى من علم أصول الفقه: ص٨٠.

(٢) يراجع: المستصفى من علم أصول الفقه للغزالي: ص١٥٤، ٢٨٣، والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي: ٦/ ٣٨٤، ٧/ ١٩..

مخالفتها، وجعل لها في النفوس مهابة، وفي القلوب إجلالا، حتى صار احترامها وتوقيرها معلوما من الدين بالضرورة.

والغاية من تعظيمها تكمن في الآتي:

أولا: أن تعظيمها تعظيم لله ﷻ:

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

لأن من حق الله تعالى على عباده أن يعظِّموه ﷻ، وتعظيمه تعالى يقتضي تعظيم أوامره ونواهيه، وبالتالي تعظيم حرماته وحدوده وشعائره ﷻ.

"فإن تعظيم الأمر والنهي ناشئٌ عن تعظيم الآمر الناهي ﷻ؛ فإن الله تعالى ذمَّ من لا يعظِّمه ولا يعظِّم أمره ونهيه، قال ﷻ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته[1]، .... وأول مراتب تعظيم الحق ﷻ: تعظيمُ أمره ونهيِه، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه برسالته التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، ومقتضاها: الانقيادُ لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله ﷻ واتباعه، وتعظيم نهيِه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه واجتنابه دالا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة، والبراءة من النفاقِ الأكبر"[2]. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ٢٣/ ٦٣٤، عن ابن عباس، ومجاهد والضحاك، وهو قول جمهور المفسرين، يراجع: معاني القرآن للأخفش: ٢/ ٥٥٠، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣/ ٣١٦، وتفسير القرآن للسمعاني: ١/ ٤٥٧، ٦/ ٥٦، وحكى الإجماع عليه، ومعالم التنزيل للبغوي: ٣/ ٤٤٠، وغيرها من كتب التفسير..

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم: ص٩، ١٠. بتصرف وتلخيص.

ثانيا: أن تعظيمها مقصد من مقاصد التشريع:

فإنه من مقاصد التشريع أن يكون نافذا في الأمة ولن يتم ذلك على الوجه الأكمل حتى يكون مُعَظَّما؛ إذ لا تحصل المنفعة المقصودة منه كاملةً بدون نفوذه وتعظيمه فامتثال الأمّة للشريعة وتعظيمها لها أمر اعتقادي تنساق إليه نفوس المسلمين عن طواعية واختيار؛ لأنها تُرضِي بذلك ربّها، وتستجلب به رحمته إياها، وفوزها في الدنيا والآخرة[1]. فالانقياد التام والإذعان المطلق للتشريع لا يتم إلا بامتثال تلك الأصول وتعظيمها، والاعتصام بها، والحذر من مخالفتها.

ثالثا: أن في تعظيمها بناء لفكر المسلم، وحماية له من الانحراف، لأن تعظيمها واحترامها –كما سنرى– جزء من الإيمان، فلا يجوز لمسلم أن يتجرأ على مخالفتها إفراطا أو تفريطا، وإلا وقع في الحرام بقدر ما خالف. وما فرط وتساهل العصاة ولا أفرط وتجرأ الغلاة إلا من قلة تعظيمهم لأصول الدين وهوانها في قلوبهم.

جوانب منهج القرآن في تعظيم أصول الدين

لقد قام منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا على تعظيم أصول الدين في النفوس والقلوب، فجعل لها مكانة ومهابة وجلالا، فما يستطيع المسلم الحق أن يخالفها قيد أنملة، بل إنه يتعبد لله تعالى بتعظيمها فوق التعبد بالعمل بها والوقوف عند حدودها. فكان هذا التعظيم والتقديس أصلا لبناء الفكر الإسلامي وسياجا لحمايته من التيارات المنحرفة.

ولمنهج القرآن الكريم في ذلك جوانب أربعة أجملها في الآتي:

الأول: الأمر بالاعتصام بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتحذير من مخالفتهما:

(أ) الأمر بالاعتصام بالقرآن الكريم:

وقد أمر الله تعالى بالاعتصام به في آيات كثيرة، ومن ذلك:

* **قوله تعالى**: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ

(١) مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور: ٣/ ٣٥٠. بتلخيص وزيادة.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

﴿تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

حيث أمر تعالى بالاعتصام به وبيَّن أن ذلك طريق الهداية؛ والاعتصام افتعال من العصمة، وهو التمسك والاحتماء بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف، ومنه سميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها"[١]. والحبل: "معروف وهو ما يتوصّل به إلى شيء"[٢]، أو ما يشد به للارتقاء، أو التدلي، أو للنجاة من غرق، أو نحوه.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

والمراد بالحبل هنا: كتاب الله تعالى[٣]، أخرج مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: (**أَلا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ و** ﷻ، **هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ**)[٤].

وفي الآية استعارة تمثيلية، مثَّلت حال التمسك بدين الله، بحال المعتمد على حبل قوي يمنعه من السقوط[٥].

ثم بين سبحانه في آخر الآية أن ما أمرهم به من الاعتصام بكتابه الكريم إنما هو من دلائل عنايته سبحانه بهم؛ رجاء أن يهتدوا للحق ويعرفوا ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

* **وقوله تعالى:** ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام ١٥٥].

---

(١) المفردات للراغب: ص٥٧٠، ومدارج السالكين لابن القيم: ١/ ٤٥٨.

(٢) المفردات: ص٢١٧.

(٣) قاله ابن مسعود، وقتادة، والسدي. ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٣/ ٧٢٤، والنكت والعيون للماوردي: ١/ ٤١٣، ٤١٤.

وقيل الحبل: دين الله وهو الإسلام. وقيل: عهد الله. وقيل: الإخلاص لله والتوحيد. وقيل: هو الجماعة. ذكرها الماوردي في النكت والعيون: ١/ ٤١٣، ٤١٤. وكلها تعود إلى الاعتصام بكتاب الله تعالى.

(٤) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل علي رضي الله عنه: ٤/ ١٨٧٤، ح(٢٤٠٨) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٥) التحرير والتنوير: ٤/ ٣١، بتصرف.

وهو أمر صريح باتباع القرآن الكريم، تضمن ترغيبا وحثًّا عظيما على الاعتصام به والعمل بما فيه؛ دلّ عليه: تعظيم شأنه وإعلاء مكانته، بافتتاح الجملة باسم الإشارة للقريب رغم بُعْدِ مكانته ومنزلته؛ إيماءً إلى سهولة تناولهم له واطلاعهم على تعاليمه وتوجيهاته، وكذا وصفه بأنه منزل من الله، وبأنه مبارك، وكذا ختام الآية بالترغيب في اتباعه بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أي: رجاء أن ترحموا باتباعه والتمسك به؛ كل هذا للترغيب في اتباع القرآن الكريم؛ والحث على التمسك به.

* **وقوله تعالى:** ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٢-٣].

حيث أمرهم الله تعالى أمرا صريحا باتباع القرآن، ورغَّبهم في ذلك، فأخبر بإنزاله إليهم، وكأنه أُنزل إليهم وحدهم لهدايتهم، مع أنه منزل لهداية الثقلين، كما نسبهم تعالى إلى ربوبيته، وفي هذا من العناية بهم ما لا يخفى. ثم نبَّه تعالى في نهاية الآية على ما جُبِل عليه الإنسان من قلة الاتعاظ والرجوع إلى الحق، حثًّا لهم على التخلي عن هذا السلوك الذميم، ليعرفوا طريق الحق ويتبعوه.

والمفسرون على أن الأمر باتباع ما أُنزل يراد به القرآن والسنة[1]؛ لأن السنة مما أُنزل أيضا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي أمر الله تعالى فيها بالاعتصام بالقرآن الكريم واتباعه، ونلمس فيها جميعا معاني التعظيم والتقديس؛ لأنه يبعد في الدين أن يكون الأمر باتباع القرآن والاعتصام به جافيا خاليا من التعظيم والتقديس.

(١) يراجع: جامع البيان: ١٢/ ٢٩٧، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ٣٤٥، والكشاف: ٢/ ٨٦، والجامع لأحكام القرآن: ٧/ ١٦١. وغيرها.

(ب) الأمر بالاعتصام بالسنة النبوية:

وقد أمر الله تعالى بالاعتصام بها أيضا في آيات كثيرة، ومن ذلك:

* **قول الله تعالى:** ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣٢].

حيث أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرشد الناس إلى الطريق الذي متى سلكوه كانوا حقا محبين الله، وهو وجوب اتباعه ﷺ.

قال ابن كثير: "هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على السنة النبوية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع السنة في جميع أقواله وأفعاله وأحواله"(١).

* **وقوله تعالى:** ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وفيه أمر صريح بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، هذا في حياته، وأما بعد وفاته، فبالاعتصام بالقرآن والسنة.

* **وقوله تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٥٩].

حيث أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله، أمرا صريحا، وكرر العامل زيادة في التأكيد، وحثًّا على الامتثال، وهو ينصرف بعد وفاته ﷺ إلى الاعتصام بالقرآن والسنة.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي أمر الله تعالى فيها باتباع السنة، والاعتصام بها، مع ما تحمله كل هذه الآيات من معاني التعظيم، لأنه لا معنى للأمر بالاتباع إن كان أمرا خاليا من التعظيم. وهذا مما يحفظ فكر المسلم ويجعله وقَّافا عند السنة هيَّابا من مخالفتها.

(ج) التحذير من مخالفة القرآن أو السنة:

والآيات في ذلك كثيرة جدا، منها:

* **قول الله تعالى:** ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٦.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٤، ٦٥].

والشاهد فيه: أن الله تعالى أقسم على وجوب طاعة نبيه ﷺ، طاعة مخصوصة؛ بأن تكون في كل الأمور، وأن تكون برضى تام، وتسليم كامل، وانقياد مطلق، دون أدنى ضيق في القلب أو حرج في النفس.

ومعلوم أن هذا في حياته ﷺ، وأما بعد وفاته: فبتحكيم القرآن الكريم والسنة النبوية.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة "وعيدا شديدا على مخالفة رسول الله ﷺ، تقشعر له الجلود، وترجف منه الأفئدة: فأولا أقسم سبحانه بنفسه، مؤكدا هذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون، فنفى عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالحي عباد الله، حتى تحصل لهم غاية، هي: تحكيم رسول الله ﷺ، ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، فضم إلى التحكيم أمرا آخر، هو عدم وجود حرج -أيِّ حرج- في صدورهم، فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافيا حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان، وانثلاج قلب، وطيب نفس، ثم لم يكتف بهذا كله، بل ضم إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟﴾ أي: ويذعنوا وينقادوا ظاهرا وباطنا، ثم لم يكتف بذلك، بل ضم إليه المصدر المؤكد فقال: ﴿تَسْلِيمًا﴾، فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قضي عليه، ويسلم لحكم الله وشرعه، تسليما لا يخالطه رد ولا تشوبه مخالفة"(١).

* **وقوله تعالى:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧].

لما أمرهم الله تعالى بطاعة رسوله في كل أمر ونهي، أمرهم بتقواه، وحذرهم من عقابه الشديد على مخالفة رسوله ﷺ في أي أمر أو نهي، وأكد العقاب زيادة في التحذير والتخويف.

(١) فتح القدير للشوكاني: ١/ ٥٥٩. بتصرف.

* **وقوله تعالى:** ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المائدة: ٩٢].

وفيه تحذير صريح من مخالفة طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، والمعنى: التزموا طاعة الله وطاعة رسوله في كل أمر ونهي، واحذروا عقاب الله الشديد إن خالفتم طاعته أو طاعة رسوله، فإن أبيتم إلا المخالفة، فاعلموا أنه ليس على رسولنا إكراهكم على الطاعة أو إجباركم عليها، وإنما عليه فقط إبلاغكم إبلاغا واضحا بينا، ولم يذكر الله تعالى عقابهم إن أصروا على المخالفة، زيادة في الوعيد والتهديد والتخويف.

* **وقوله تعالى:** ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٦].

والمعنى: "لم يكن لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعصوهما، ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو نهيا فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدي والرشاد"(١).

إلى غير ذلك من الآيات التي حرم الله تعالى فيها مخالفة طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وهي أكثر من أن تحصى.

هذا، ونلاحظ في ذلك كله تأكيد القرآن الكريم على بناء وجدان المسلم وفكره على تعظيم هذين الأصلين العظيمين (القرآن والسنة)، من خلال تأكيده على ذلك، وكثرة التنويه به والتشديد عليه، وكذا من خلال أسلوب الترغيب الذي كسا تلك الأوامر والنواهي وغلفها. وفي هذا البناء الفكري ما يعصم المسلم ويحول بينه وبين الأفكار الفاسدة والآراء الضالة.

ولقد زرع هذا التعظيم في نفوس الرعيل الأول وغرس في قلوبهم رضي الله عنهم حب الطاعة، والوقوف عند حدودها، بل قبل حدودها؛ على ما أشار إليه الصديق رضي الله عنه حين قال: (كُنَّا ندع

(١) يراجع: جامع البيان: ٢٠/ ٢٧١، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١٠٤.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

سبعين بابا من الحلال مخافة أَن نقع فِي بَاب من الحرام)[١]، وما أشار إليه الفاروق ﷺ: (تَرَكْنَا تِسْعَةَ أَعْشَارِ الْحَلَالِ مَخَافَةَ الرِّبَا)[٢].

وما ذاك إلا لتعظيمهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، لا مجرد اتباعهما.

الثاني: التمسك بالإجماع والقياس:

والتمسك بهما تمسك بالقرآن والسنة؛ لأن مردهما إليهما، فلا إجماع ولا قياس إلا بناء على نصوص الوحي قرآنا وسنة، فالإجماع لابد أن يعتمد على أصل من الكتاب أو السنة، والقياس إلحاق واقعة لم يرد نص بحكمها بواقعة ورد النص بحكمها، لتساوي الواقعتين في علة الحكم، فكلاهما قائم على الكتاب والسنة. ولهذا اتفقت عليهما كلمة جمهور الأمة، وبلغا في الشريعة منزلة عظيمة، حتى صار تعظيمهما من تعظيم الدين.

وصار تعظيمهما والتمسك بهما أساسا لبناء الفكر الإسلامي على احترام وتعظيم اجتهاد الأمة، وتراثها الديني.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩]

حيث دلت الآية الكريمة على وجوب اتباع أصول التشريع الأربعة والاعتصام بها[٣]:

فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، وهو أمر باتباع القرآن والسنة والاعتصام بهما.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ أمر بطاعة أولي الأمر من المسلمين، وهو أمرٌ باتباع ما أجمع عليه المجتهدون من الأحكام؛ لأنهم أولو الأمر التشريعي من المسلمين.

---

(١) الأثر: ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب: ٢/ ٤٣٤، والقشيري في الرسالة القشيرية: ١/ ٢٣٣.

(٢) الأثر: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه: كتاب: البيوع، باب: طعام الأمراء وأكل الربا: ٨/ ١٥٢، ح(١٤٦٨٣).

(٣) يراجع: علم أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف: ص: ٢١، ٢٢. تلخيص وزيادة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ أمر برد الوقائع المتنازع فيها إلى الله والرسول، وهو أمر باتباع القياس حيث لا نص ولا إجماع؛ لأن القياس فيه رد المتنازع فيه إلى الله وإلى الرسول؛ لأنه إلحاق واقعة لم يرد نص بحكمها بواقعة ورد النص بحكمها في الحكم الذي ورد به النص، لتساوي الواقعتين في علة الحكم(١).

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ثم هناك آيات أخرى استدل بها كثير من العلماء على التمسك بالإجماع والقياس، كل على حدة، ومنها:

(أ) في التمسك بالإجماع:

* **قوله تعالى:** ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾[النساء: ١١٥.

والمعنى: ومن يخالف أمر الرسول ﷺ فيما جاء به عن الله تعالى من بعد وضوح الدليل وظهور الرشد، ويسلك طريقًا غير طريق المؤمنين، ويتبع منهاجًا غير منهاجهم، نتركه مع اختياره الفاسد، وندعه وما اختاره في الدنيا، وندخله جهنم عقوبة له، وساءت جهنم مرجعًا لهم.

قال المفسرون: وهو دليل على أن الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة، لأنّ الله ﷻ جمع بين اتباع سبيل غير المؤمنين، وبين مشاقة الرسول في الشرط، مما يدل على أنهما بمرتبة واحدة، فكما يجب على المسلم اتباع الرسول وعدم مخالفته، كذلك يجب عليه متابعة سبيل المؤمنين واتفاقهم في الأحكام، وعدم مخالفتهم فيها، وجعل جزاء

(١) وهناك مصادر أخرى للتشريع عدا هذه الأصول الأربعة هي محل خلاف بين العلماء في الاستدلال بها، وأشهرها ستة: الاستحسان، والمصلحة المرسلة، والاستصحاب، والعرف، ومذهب الصحابي وشرع من قبلنا، والأمر فيها واسع، وذلك تبعا للحجة والبرهان، ومقاصد التشريع.

المخالفة الوعيد الشديد، فكان اتباعهم واجبا كموالاة الرسول عليه الصلاة والسلام (١).

وفي التعبير عن مشاقة الرسول ﷺ التي تحمل في طياتها معنى المعاداة، وفي التحذير الشديد الوارد في نهاية الآية ما يشدد على وجوب التمسك والاعتصام بسبيل المؤمنين، والذي فسره العلماء بالإجماع.

* **وقوله تعالى:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال القرطبي: "وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به، لأنهم إذا كانوا عدولا شهدوا على الناس. فكل عصر شهيد على من بعده، فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين، وقول التابعين على من بعدهم. وإذ جعلت الأمة شهداء فقد وجب قبول قولهم. ولا معنى لقول من قال: أريد به جميع الأمة، لأنه حينئذ لا يثبت مجمع عليه إلى قيام الساعة. وبيان هذا في كتب أصول الفقه"(٢).

وغير ذلك من الآيات، من مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(١) يراجع: الكشاف: ١/ ٥٦٥، والتفسير الكبير: ١١/ ٢١٩، والجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٨٦، الإحكام للآمدي: ١/ ٢٠٠، وإرشاد الفحول للشوكاني: ١/ ١٩٨، وأصول السرخسي: ١/ ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١٥٦.

[عمران: ١١٠].

(ب) وفي التمسك بالقياس:

ـ قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾[الحشر: ٢]

والاعتبار اسم يتناول تمثيل الشيء بغيره، واعتباره به، وإجراء حكمه عليه، والتسوية بينهما في ذلك، وإنما سمي الاتعاظ والفكر اعتبارا؛ لأنه مقصود به التسوية بين الأمر ومثله، والحكم فيه بحكم نظيره(١)، ولهذا احتج جمهور الأصوليين بهذه الآية على إثبات حجية القياس بناء على أنه من الاعتبار(٢)، قالوا: أمر الله تعالى بالاعتبار، والاعتبار مشتق من العبور، والقياس عبور من حكم الأصل إلى حكم الفرع، فكان داخلا تحت الأمر(٣).

وفي الآية ثناء عليهم حيث أمرهم الله تعالى بالاعتبار الذي هو النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها، وهذا لا يعرفه كل أحد، ثم وصفهم بأنهم أولوا الأبصار، أي: أصحاب التأمل، والتفكر، والتبصر، والتمييز بين الأشياء، والنظر السليم في الأمور. وهذا إن دل على مدح فيهم، فهو يدل من باب أولى على عظيم ما أُنيط بهم وما كلفوا به.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٣﴾ [النساء: ٨٣]،

وقد اختلف في المراد بأولي الأمر ههنا، فقيل: هم الأمراء والولاة، وقيل: هم العلماء، والأولى أنه يراد به الفريقان من أهل العلم والولاة، لوقوع الاسم عليهم جميعا، فالولاة سموا أولي أمر لأنهم يملكون الأمر بالولاية على الناس، والعلماء سموا أولي أمر لأنهم يعرفون أوامر الله ونواهيه ويلزم غيرهم قبول قولهم فيها.

---

(١) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي: ٧/ ٢٨، ٢٩.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٨/ ٢٢٦، والتحرير والتنوير: ٢٨/ ٧٢.

(٣) الإحكام للآمدي: ٤/ ٢٩، وإرشاد الفحول للشوكاني: ٢/ ٩٥.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

والاستنباط هو الاستخراج ومنه استنباط المياه والعيون، وفي هذه الآية دلالة على وجوب الأخذ بالقياس واجتهاد الرأي في أحكام الحوادث، وذلك لأنه أمر برد الحوادث إلى الرسول ﷺ في حياته إذا كانوا بحضرته وإلى العلماء بعد وفاته والغيبة عن حضرته ﷺ وهذا لا محالة فيما لا نص فيه لأن المنصوص عليه لا يحتاج إلى استنباط(١).

تتمة: تبين مما سبق أن للإجماع والقياس منزلة عظيمة في الدين، ولهذا قام الفكر الإسلامي على تعظيمهما؛ لأنهما أغلى ثمرة من ثمار اجتهاد علماء الأمة، وأخلص خلاصة لعصارة فكرها، فكان التمسك بهما سندا وضمانة للبقاء على الصراط المستقيم، وحفظا وقاية لا محالة من الانحراف، فإن أكثر الضلال لا يأتي إلا من مخالفة الجماعة، ولهذا قال ﷺ: (**فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**) (٢).

إن التمسك بالإجماع والقياس محافظة على فكر الإنسان، حتى لا يغرد منفردا بعيد عن سرب الجماعة، فيكون فريسة سهلة للأهواء والشهوات والانحرافات.

الثالث: **وجوب الرجوع لأهل العلم بالدين**:

ومن جوانب تعظيم القرآن الكريم لأصول الدين أن أوجب الرجوع لأهل العلم بالدين لمعرفة الأحكام فيما لا يُعْلم، وللسؤال والفتيا في كل ما يَجِدُّ؛ لأنهم هم الذين أذن لهم الله تعالى في ذلك، وكلفهم به. وذلك لئلا يتكلم في الدين من لا علم له فيحل حراما أو يحرم حلالا، وفي هذا بناء قويم لفكر المسلم على أسس سليمة قوية، موافقة للعقل والفطرة، فإنهما حاكمان بأن لا يُسأل غير المتخصص في أمور الدنيا، فما بالنا بأمور الدين!!. **ومن جوانب منهج القرآن الكريم في ذلك**:

(١) يراجع: أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ١٨٢، ١٨٣ بتلخيص واختصار.

(٢) الحديث: أخرجه أبو داود في سننه: كتاب: الصلاة، باب: في التشديد في ترك الجماعة: ١/ ١٥٠، ح(٥٤٧)، والحاكم في المستدرك: كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المجادلة: ٢/ ٥٢٤، ح(٣٧٩٦) عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.، وصححه ووافقه الذهبي.

* أن الله تعالى شرع سؤال أهل العلم عند الاختلاف قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ [الأنبياء: ٧].

والخطاب في السؤال في الآيتين -في رأي الجمهور- وإن كان موجها للمشركين ليسألوا أهل الكتاب عن كون المرسلين جميعا من الرجال من بني آدم لا من الملائكة(١)، إلا أنه يجب اعتبار عمومه، فيؤخذ من الآيتين دليلان على وجوب الرجوع إلى أهل العلم والاحتكام إليهم فيما لا يُعلم.

* وأوجب الله تعالى علينا أن نرجع إلى الكتاب والسنة وأهل العلم في كل حادثة أو نازلة؛ حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]،

حيث أمر الله تعالى برد المتنازع فيه إلى الله والرسول، والأمر للوجوب، والرد إليهما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسم لا يكون إلا إلى القرآن والسنة، وهذا ليس موكولا لكل أحد، وإنما لأهل العلم بالقرآن والسنة، يدل على ذلك صراحة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: ٨٣]. حيث جاء التصريح فيه برد المتنازع فيه إلى أهل الاستنباط، وهم دون شك أهل العلم بالقرآن والسنة.

وهذا من كمال عدل الله تعالى ورحمته، وإحسانه وحكمته، وإقامته للحجة، فكما أنه تعالى لم يبعث نبيا من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، لئلا يكون للناس على الله حجة

(١) للمفسرين في المراد بأهل الذكر في الآيتين قولان: الأول: أنهم أهل الكتاب وهو قول الجمهور، والثاني: أنهم المسلمون، وهو قول البعض. يراجع: جامع البيان: ١٧/ ٢٠٧، ٢٠٨، و١٨/ ٤١٣، ٤١٤، والنكت والعيون: ٣/ ١٨٩، والتفسير الكبير: ٢٠/ ٢١١، ومدارك التنزيل: ٢/ ٢١٤، ٢/ ٣٩٥، وإرشاد العقل السليم: ٥/ ١١٦، ٦/ ٥٧، وفتح القدير: ٣/ ٤٧١. وغيرها.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بعد الرسل، كذلك أقام العلماء بدينه مقام نبيِّه ﷺ، ليقوموا بمهمة البيان من بعده ﷺ، رحمة بخلقه وإحسانا إليهم.

وكأن القرآن الكريم بهذا يضع سياجا ثالثا يحفظ به الفكر والعقل، ويحدد المرجع الذي يجب أن يرجع إليه عند الجهل أو الاختلاف، حتى لا يضل المسلم أو يقع فريسة لأهل الأهواء.

الرابع: تحريم الخوض في الدين بغير علم:

ومن جوانب تعظيم أصول الدين تحريم الخوض فيها بغير علم؛ لأن تعمد الخوض في الدين بغير علم تعمد للكذب على الله تعالى، والكذب على الله تعالى من كبائر الذنوب(١)، قال الله ﷻ ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر: ٦٠].

والذين كذبوا على الله: هم الذين نسبوا إليه ﷻ ما هو منزه عنه، أو أحلُّوا الحرام وحرَّموا الحلال .... الخ، وفيه تخويف شديد من الكذب على الله تعالى، وظاهر الآية اسوداد وجوههم يوم القيامة على الحقيقة، ليفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد، فيجتمع عليهم العذاب المعنوي، والعذاب المادي في جهنم وبئس المصير.

ولا ريب أن اسوداد وجوههم ناشيء عن انحراف فكرهم في الدنيا، فخوفهم الله تعالى بهذا العقاب الشديد، وفيه حماية للفكر من الانحراف.

لأجل هذا:

* حرَّم الله علينا الخوض فيما لا نعلمه:

فعلَّم نبيَّه ﷺ -والأمر لنا من بعده- أن لا يتكلم فيما لا يعلم، وهذا أدب عالٍ أدب الله تعالى به نبيَّه، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولهذا تنزه النبي ﷺ عن الكلام بما لا يعلم، بل لم يكن يتكلم إلا بالوحي، ومدحه الله تعالى

(١) يراجع: الكبائر للذهبي: ص: ٧٠، والزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي: ١/ ١٦٢.

بذلك، فقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

* وأدَّب الله تعالى ملائكته بهذا الأدب؛ ولهذا لما سئلوا عما لا يعلموه: قالوا لا نعلم، ونسبوا العلم لله، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢.

* وحرَّم الله تعالى القول عليه بغير علم، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣ ﴾ الأعراف: ٣٣

وهذا تحريم صريح، يشمل كل أنواع الكذب على الله تعالى، وهذا كاف في بيان حرمته، فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذهب إليه بعض المحققين من أن ترتيب المحرمات في هذه الآية بدأ من الأدنى للأعلى، كان القول على الله بغير علم هو أعظم تلك المحرمات.

قال ابن القيم: "..... فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما، فإنه يتضمن الكذب على الله تعالى، بنسبته إلى ما لا يليق به، أو تغيير دينه وتبديله، أو نفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، أو تحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، أو عداوة من والاه وموالاة من عاداه، أو حب ما أبغضه وبغض ما أحبه، أو وصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله ... الخ. فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثما، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم"(١).

* وبيَّن الله تعالى أن من يتقول عليه بغير علم إنما هو متبع للشيطان، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩ ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]

(١) مدارج السالكين لابن القيم: ١/ ٣٧٨. بتصرف يسير.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

وفي هذا تحذير وتخويف آخر، أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم[١]، من مثل قولكم: هذا حلال وهذا حرام، بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه، .... فإن قلت: كيف كان الشيطان آمرا لهم بذلك مع قوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر: ٤٢]؟ قلت: شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر، كما تقول: أمرتني نفسي بكذا[٢].

* كما حرَّم الله تعالى الفتيا بغير علم، وجعلها افتراء للكذب عليه تعالى، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل: ١١٦].

حيث "نهى الله تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حلَّلوا وحرَّموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، مما كان شرعا لهم ابتدعوه في جاهليتهم، ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه"[٣].

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال: "قرأت هذه الآية في سورة النحل، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا"[٤]. وأخرج الطبرانيّ عن ابن مسعود قال: "عسى رجل يقول: إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا. فيقول الله عز ﷻ: كذبت. أو يقول: إنّ الله حرم كذا أو أحلّ كذا: فيقول الله له: كذبت"[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ٣٤٩.

(٢) الكشاف: ١/ ٢١٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٢٣. باختصار. ويراجع: التسهيل لابن جزيء: ١/ ٤٣٨.

(٤) الأثر: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم: ٧/ ٢٣٠٦.

(٥) الأثر أخرجه الطبراني في الكبير: باب من فضائل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ٩/ ٢٠٤، رقم(٨٩٩٥).

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ولهذا كره الإمام مالك وقوم أن يقول المفتي: هذا حلال وهذا حرام في المسائل الاجتهادية، وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه، ويقال في المسائل الاجتهادية: إني أكره كذا وكذا، ونحو ذلك(١).

هذا كله يدل دلالة لا ريب فيها على تحريم الخوض في الدين بغير علم، وفي ذلك تربية عظيمة لفكر المسلم، وصيانة له من الانحراف إفراطا أو تفريطا، والوقوع في كبائر الذنوب.

فالمسلم الحق يتهيب من الخوض في الدين وإن كان عالما؛ لأنه يعلم أن الكلام في الدين له خطورته ومسؤوليته، لأنه تبليغ عن الله تعالى.

ولهذا "كان السَّلَف من الصحابة والتابعين يكرهون التَّسرُّعَ في الفَتْوَى، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيرُه؛ فإذا رأى أنها قد تعيَّنت عليه بَذَلَ اجتهادَهُ في معرفة حكمها من الكتاب والسنة، أو قول الخلفاء الراشدين، ثم أفتى"(٢).

وما ذاك إلا "لأن دين الله سبحانه كان أجَلَّ في صدورهم، وأعْظَمَ في نفوسهم، من أن يقدِّموا عليه رأيًا أو معقولا أو تقليدًا أو قياسًا، فطار لهم الثناء الحسنُ في العالمين، وجعل الله سبحانه لهم لسان صِدْقٍ في الآخرين، ثم سار على آثارهم الرَّعِيلُ الأول من أتباعهم، ودَرَجَ على منهاجهم الموفَّقُون من أشياعهم، زاهدين في التعصب للرجال، واقفين مع الحجة والاستدلال، يسيرون مع الحق أين سارت ركائبُه، ويستقلون مع الصواب حيث استقلت مَضَاربه(٣).

وخلاصة القول:

أن بناء القرآن الكريم لفكر المسلم على تعظيم أصول الدين وإجلالها هو الذي يجعله وقَّافا عند حدود الشرع، لا يجاوزها، وهو الذي يحفظ فكره من الانحراف إفراطا أو تفريطا، وهو الذي يصونه من الوقوع في براثن التيارات الفكرية المخالفة.

---

(١) ملخص من أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٦٧.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم: ٢/ ٦٢.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم: ٢/ ١٠.

ولقد كان التفريط في تعظيم أصول الدين السبب الرئيس في انحراف أناس من بني جلدتنا، غرتهم حياة الغرب بزخرفها وشهواتها، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، فأرادوا جهلا بالدين أن يطوِّعوه لمبادئ تلك الحضارة المادية، التي لا تعرف للدين منزلة ولا قدسية ولا تعظيما، زعما منهم مواكبة التطوير والتجديد، والحرية الفكرية، والتعبير عن الرأي، وفكرُهم من هذا كله بعيد بُعْد السماء عن الأرض؛ فرأينا عَطَنَ انحرافهم وفساد فكرهم، ومخالفتهم أصول الدين جملة وتفصيلا، -بقصد أو بغير قصد- دون أن تتوفر فيهم أدنى المؤهلات الشرعية.

فرأينا منهم من يقدم العقل على النص الشرعي، ومن يتأول النصوص الشرعية تأويلا فاسدا، ويلوي أعناقها لتوافق هواه، ومن ينكر المعلوم من الدين بالضرورة، بل من ينكر السنة النبوية جملة ويكتفي بالقرآن، ومن يزعم أن القرآن نص أدبي تاريخي قابل للنقد، إلى آخر انحرافاتهم الفكرية التي أرادوا بها التوفيق (بل التلفيق) بين الفكر الغربي القائم على فلسفات ونظريات مادية إلحادية، وبين الفكر الإسلامي القائم على الوحي الإلهي المعصوم، توصُّلاً منهم إلى تمييع الدِّين، وإلغاء دوره، وحبسه في زاوية ضيقة تقتصر على دور العبادة ومظاهر الأخلاق، تجسيدًا واضحا منهم لعَلْمَنَة الدِّين، وإعادة فهم أحكامه على منهجية الغرب.

وما كان انحرافهم هذا إلا نتيجة حتمية لعدم تعظيمهم لأصول الدين، وقلة مبالاتهم بقدسيتها، وعدم احترامهم وتقديرهم لتراث الأمة واجتهاد أعلامها، وضعف اتصالهم بالعلوم الشرعية، وهوان الدين في أنفسهم.

* * * * *

المطلب الثالث

المعلم الثالث: قيامه على الوسطية والاعتدال

توطئة:

لا يمكن للفكر أن يبنى بناء سليما، وأن يبقى ثابتا راسخا مواجها كل المحن والتيارات إلا إذا كان قائما على أسس قوية راسخة، تمثل الوسطية إحدى دعائمها وقواعدها، ولم يتحقق ذلك إلا في الفكر الإسلامي، وذلك لقيامه على الوحي الإلهي المعصوم، الذي ضمن له الصدارة والبقاء، والصلاحية لكل زمان ومكان.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ولقد أرسى القرآن الكريم قواعد الوسطية في كل باب من أبواب هذا الدين الحنيف، عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا؛ حتى صارت شعاره الأساس، وروحه التي تسري في جنباته؛ فكان لهذا أعظم الأثر في بناء الفكر الإسلامي على الوسطية والاعتدال، ووقايته من التطرف والانحراف.

وعليه يمكن بيان منهج القرآن الكريم في ذلك في جانبين رئيسين، **أولهما**: بيانه لمعاني الوسطية، **وثانيهما**: تقريره لوسطية الدين (عقيدة وشريعة وأخلاقا) وأثره في بناء الفكر الإسلامي، وهو ما نتناوله في الصفحات الآتية.

الفرع الأول: بيان القرآن لمعاني الوسطية والاعتدال.

من عظيم عناية القرآن ببناء المسلم فكريا على الوسطية السمحاء أنه اعتنى ببيان معانيها في آيات كثيرة، بألفاظ مختلفة، وفي مقامات متعددة؛ حتى يتصورها المسلم تمام التصور، فتنطبع في قلبه، ويتأكد مضمونها في وعيه وفكره.

وإن تكرار القرآن الكريم لمعنى ما في سياقات مختلفة بألفاظ متعددة ليقوم مقام تأكيده باللفظ الواحد. وهذا ما رأيناه في معاني الوسطية والاعتدال.

ومن أهم هذه المعاني ما يأتي:

(أ) **الخيرية:**

فالوسطية تعني الخيرية في أحد معانيها، **دل على ذلك قوله تعالى:** ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والآية واردة في سياق الثناء على الأمة الإسلامية، حيث أثنى الله تعالى عليها بأنها مكتوبة في علمه خير الأمم، وجعل هذه الخيرية في ثلاثة أوصاف: أولها: الأمر بالمعروف، وثانيها: النهي عن المنكر، وثالثها: الإيمان بالله تعالى، هذه الأوصاف الثلاثة هي على رأس ملامح وسطيتها التي اختصها الله تعالى بها.

(ب) **العدل**:

وهو من معاني الوسطية أيضا، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالأمة الإسلامية أعدل الأمم، وبهذا فسر النبي ﷺ وسطيتها بقوله: (**والوَسَطُ: العَدْلُ**)(١).

وصفهم الله تعالى بالوسطية لتوسطهم في الدين واعتدالهم فيه، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، -غلوَّ النصارى الذين غَلُوا بالترهُّب، وقِيلهم في عيسى ما قالوا فيه - ولا هُم أهلُ تقصير فيه، -تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به-؛ ولكنهم أهل توسُّط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها(٢).

(ج) **التيسير، ورفع الحرج، وعدم التكليف بما لا يطاق**:

وهذه كلها من معاني الوسطية والاعتدال.

ففي التيسير على الأمة يقول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي رفع الحرج عن الأمة يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ [الحج: ٧٨﴾. وفي عدم التكليف بما لا يطاق: يقول الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: في كتاب التَّفسير: تفسير سورة البقرة، باب قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾: ٦/ ٢١، ح(٤٤٨٧)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) جامع البيان: ٣/ ١٤٢.

وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(د) الاستقامة:

والاستقامة أيضا من معاني الوسطية والاعتدال؛ لأن استقامة الإنسان معناها: لزومه المنهج المستقيم[1]. والمنهج المستقيم هو الوسط الذي لا عوج فيه. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ ﴾ [هود: ١١٢]. يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بدوام الاستقامة على ما أمره الله تعالى به، والأمر للأمة من بعده، وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك! قال: (**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ**)[2]،[3].

(هـ) القَوام:

وهو من معاني الوسطية أيضا، لأنه يعني الاعتدال؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾ [الفرقان: ٦٧].

حيث مدح الله تعالى عباده (عباد الرحمن) في إنفاقهم بالوسطية والاعتدال؛ فنفى عنهم الإسراف والتقتير، وأثبت لهم الإنفاق بالقوام، أي: بالوسطية والاعتدال.

وهكذا أبان القرآن الكريم عن معاني الوسطية والاعتدال في كثير من آياته البينات، في مواطن مختلفة، وفي مقامات شتى، ليراها المسلم في كل باب من أبواب الدين شاهدة نصب عينيه، فينطبع أثرها ومعناها في قلبه، ويتربى على مبادئها فكره، ويتكون منها وعيه، فيتمثلها تطبيقا عمليا في أقواله وأفعاله، ومنهجه وسلوكه.

---

(١) المفردات: ص٦٩٢.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام: ١/ ٦٥، ح(٣٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٠٧.

الفرع الثاني: تقرير القرآن لوسطية الدين وأثره في بناء الفكر الإسلامي

وقد تجلى ذلك في إرساء القرآن الكريم قواعد الوسطية والاعتدال في كل باب من أبواب الدين؛ عقيدة وشريعة وأخلاقا، حتى صار ذلك من أهم معالمه. والفكر الإسلامي بلا ريب قائم على هذه الأركان الثلاثة؛ منها ينهل، وعليها يعتمد، وإليها يعود.

وهذا بيان بشيء من الإيجاز:

أولا: تقرير القرآن لوسطية العقيدة وأثره في بناء الفكر الإسلامي

لقد عني القرآن الكريم ببيان وسطية العقيدة الإسلامية عناية بالغة، وكان لذلك أثر عظيم في بناء فكر المسلم، لأن الفكر ناشئ عن العقيدة، يصلح بصلاحها، ويفسد بفسادها. ومن أهم مظاهر وسطيتها:

(أ) **اعتدالها، فلا غلو فيها ولا تقصير:**

والشواهد على ذلك في كل أبواب العقيدة، ومن ذلك:

١ـ وسطية العقيدة في الإيمان بالله تعالى:

حيث جاءت وسطا بين كل العقائد الباطلة؛ والتي منها: عقيدة أولئك الذين أنكروا وجود الله تعالى؛ وفيهم قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وعقيدة الذين ادعوا الألوهية؛ وفيهم جاء قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]. وعقيدة الذين زعموا تعدد الآلهة؛ وفيهم ورد قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ

كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢].

وعقيدة الذين اتخذوا مع الله تعالى أندادا؛ وفيهم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣]، وغيرهم من أهل الملل والنحل الباطلة.

ـ لقد أبطل القرآن الكريم كل تلك العقائد بالحجج والبراهين التي لا تقبل الشك أو الريب، وقرر العقيدة الوسطية الحقة في الله تعالى:

فأثبت وجود الله تعالى، في آيات كثيرة، بأدلة متعددة، منها: قول الله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٧ – ٩].

ـ ونفى وجود إله غيره سبحانه وتعالى، فقال عز من قائل: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢].

ـ وقرر وحدانية الله تعالى، وأثبت له كل صفات الكمال، ونزّهه سبحانه عن كل ما لا يليق بجلاله، في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ [سورة الإخلاص]، وقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

ـ ونفى عنه سبحانه الصاحبة والولد؛ فقال جل جلاله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١].

ـ ونفي عنه سبحانه الولد والشريك، فقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ـ ونفى عنه تعالى صفات المخلوقين، فقال ﷻ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤]. إلى آخر الآيات الكريمة في ذلك.

ودونك شواهد قرآنية أخرى لا تحصى، تقوم جميعها على تأسيس فكر المسلم على العقيدة الوسطية الحقة، التي تريح العقل من الشك والاضطراب، ومن عناء البحث عن اليقين، وتلبي نداء الفطرة، وتحقق الاستقرار النفسي.

٢ـ وسطية العقيدة في الإيمان بالأنبياء عليهم السلام:

حيث قررها القرآن الكريم وسطا بين عقيدة اليهود، وعقيدة النصارى.

ـ أما اليهود: فجحدوا أنبياء الله تعالى، فلم يؤمنوا بهم جميعا، وقتلوا بعضهم، وخذلوا نبيهم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾ [النساء: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة: ٢٤].

ـ **وأما النصارى**: فغالوا في شأن نبيهم عيسى ابن مريم عليه السلام:

فذهبت طائفة منهم إلى ألوهيته، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢]. وذهبت طائفة أخرى: إلى بنوته لله سبحانه؛ قال جل جلاله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠]. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وقد أفحمهم الله تعالى جميعا، وشنع عليهم، وأبطل عقائدهم، وتوعدهم بالعذاب الأليم، فكان في ذلك تحصين لفكر المسلم من الوقوع في شَرَك هذه العقائد الباطلة.

ـ **وأما العقيدة الإسلامية**: فجاءت وسطا بين جحود هؤلاء وغلو أولئك، لا إفراط فيها ولا تفريط:

حيث جعل القرآن الكريم الإيمان بالرسل جميعا ركنا من أركان الإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وجعلهم جميعا عبادا لله تعالى؛ قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [ص: ٤١] وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

﴿ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠].

إلى آخر قضايا العقيدة، في الإلهيات والنبوات والسمعيات، والتي قامت جميعها على الوسطية السمحة، وساهمت في بناء فكر المسلم، ومثلت سياجا قوية لحمايته من الانحراف.

٣ـ وسطية العقيدة الإسلامية تجاه أصحاب العقائد الأخرى:

مع إبطال القرآن الكريم لكل العقائد المخالفة، وحكمه بكفر أصحابها، وتقريره العقيدة الإسلامية الحقه، إلا أن موقفه تجاه أصحابها كان وسطيا، مما يدل على سمو تشريعه ورقي عدالته. وتقرير ذلك إجمالا في الآتي:

ـ أنه لم يجبر أحدا على الدخول في الإسلام؛ قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ـ وأنه أباح فوق ذلك معاملة المسالمين منهم معاملة حسنة؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٨ – ٩].

ـ وأنه لم يشرع جدالهم إلا بالتي هي أحسن؛ قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝٤٦﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ـ وأنه أباح أكل ذبائح أهل الكتاب، ونكاح المحصنات من نسائهم؛ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة:٥].

إلى آخر تلك التشريعات التي بنت الفكر الإسلامي على الوسطية والاعتدال، وكان لها بالغ الأثر في حمايته من الانحراف، كيف لا والفكر مرهون بما يُعقد عليه القلب، فإذا عُقد على الوسطية أثمر لا محالة فكرا معتدلا وسلوكا سويا، وإذا عُقد على الغلو أو التقصير أثمر فكرا متطرفا وسلوكا منحرفا.

(ب) وضوحها ويسرها وواقعيتها:

وهذا من أهم معالم وسطيتها، والتي كان لها أثر عظيم في بناء وسطية الفكر الإسلامي واعتداله؛ فالعقيدة الإسلامية واضحة لا غموض فيها، سهلة لا تعقيد فيها، واقعية لا خيال فيها؛ لما يأتي:

١ـ لأنها قائمة على الحجج الواضحة والبراهين الساطعة، التي يسجد لها العقل الصحيح، وتسلِّم بها الفطرة النقية.

وأي عقل صحيح وأي فطرة نقية ترد تلك البراهين الواضحة التي أقامها القرآن الكريم، وتضمنتها كثير من آياته، والتي منها:

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾ [ق: ٦، ٧]. وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١ ﴾ [لقمان: ١١]. وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩ ﴾ [الزخرف: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤ ﴾ [النمل: ٦٤].

٢ـ لأنها ترفض التقليد الأعمى وتدعو للنظر والتأمل والتعقل للوصول إلى الحق الذي لا

يمتري فيه عاقل منصف: يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٨]. ويقول تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ويقول تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦].

وعلى هذه العقيدة الوسطية بُنِي الفكر الإسلامي، فوسع أمم الأرض، على اختلاف مللهم ونِحلهم وأزمنتهم وأماكنهم، وأفاد البشرية في كل فروع العلم والمعرفة، ولم تستطع هجمات المضلين أن تنال منه، أو أن تغير من منهجه.

ثانيا: تقرير القرآن لوسطية الشريعة وأثره في بناء الفكر الإسلامي

حيث قرَّر القرآن الكريم وسطية الشريعة في كل جوانبها، من العبادات والمعاملات، فأثمرت ثمارها اليانعة في بناء الفكر الإسلامي على الوسطية والاعتدال. **ومن شواهد ذلك**:

١ـ تقرير القرآن التيسير والتخفيف على الأمة، ورفع الحرج عنها، وعدم التكليف بما لا يطاق:

* **فمما يدل على التيسير: قوله تعالى**: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]: حيث دل صراحة على أن الله تعالى لا يريد بتشريعه كله إلا اليسر، و"فيه أن هذا مقصد من مقاصد تشريع الله سبحانه، ومراد من مراداته في جميع أمور الدين"(١).

(١) فتح القدير: ١/ ٢١٠. بتصرف يسير.

واليسر من أظهر مظاهر الوسطية؛ لأنه يعني: "اللِّين والانقياد"(١)، فهو توسطٌ لا إفراط فيه ولا تفريط، إنه: "عمل لا يُجهد النفس ولا يُثقل الجسم"(٢).

* **ومما يدل على التخفيف: قوله تعالى:** ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨]: حيث دل صراحة أيضا على أن الله تعالى لا يريد بتشريعه كله إلا التخفيف واليسر(٣).

* **ومما يدل على رفع الحرج: قوله تعالى:** ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ [الحج: ٧٨].

والحرج: الضيق، أطلق على عُسْر الأفعال، تشبيها للمعقول بالمحسوس، ثم شاع ذلك حتى صار حقيقة عرفية كما هنا(٤)، وهذا نص صريح في أن الله تعالى رفع عن الأمة كل ما فيه مشقة أو ضيق، وهو مما خص الله تعالى به هذه الأمة(٥). قال ابن العربي: "ولو ذهبت إلى تعديد نِعَم الله في رفع الحرج لطال المرام"(٦).

* **ومما يدل على عدم التكليف بما لا يطاق: قوله تعالى:** ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾[البقرة: ٢٨٦]. **وقوله تعالى:** ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ [الأعراف: ٤٢].

والتكليف: هو الأمر بما يَشُقُّ. وتكلفت الأمر: تجشمته(٧). والوسع: ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يُحرج فيه، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها دون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عدله ورحمته تعالى كقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾

(١) لسان العرب: ٥/ ٢٩٥، مادة (يسر).

(٢) تراث أبي الحسن الحرالي: ص٣٤٤.

(٣) الوسيط للواحدي: ٢/ ٣٧، ٣٨، والتفسير الكبير: ١٠/ ٥٥.

(٤) التحرير والتنوير: ١٧/ ٣٥٠، ويراجع: الكشاف: ٣/ ١٧٣، والمحرر الوجيز: ٤/ ١٣٥.

(٥) الكشاف: ٣/ ١٧٣، والجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ١٠٠. بتصرف.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ٣٠٨، ٣٠٩.

(٧) الصحاح: ٤/ ١٤٢٤. مادة (كلف).

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

[البقرة: ١٨٥]؛ لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلى أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة(١).

وهو نص صريح في أن الله تعالى لم يكلف العباد عبادةً من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف وفي مقتضى إدراكه وبنيته"(٢)، وهذا تمام الوسطية.

هذا، وقد طُبق هذا المقصد التشريعي عمليا في كل أبواب العبادات والمعاملات، فكان مَعْلما من أهم معالم وسطية الفكر الإسلامي، وسببا رئيسا لدخول كثير من الناس في الإسلام. ولو ذهبنا ندلل على ذلك لطال المقام، ولخرج البحث عن هدفه.

٢ـ تقرير القرآن الكريم لكثير من الرخص الشرعية:

ـ حيث رخَّص للمكره النطق بكلمة الكفر، ولم يوجب عليه التضحية بنفسه أو بعضه؛ قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾ [النحل: ١٠٦].

ـ ورخَّص للمضطر الأكل من المحرمات، ولم يحرم عليه ذلك حتى يموت من الجوع؛ قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ ﴾ [البقرة: ١٧٣]

ـ ورخَّص للمريض والمسافر الإفطار في رمضان، ولم يشق عليهما بالصوم في تلك الأحوال؛ قال الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ ﴾ [البقرة: ١٨٤]

ـ ورخَّص للمسافر قصر الصلاة، ولم يشق عليه بإتمامها؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي

(١) الكشاف: ١/ ٣٣٢.

(٢) المحرر الوجيز: ١/ ٣٩٢.

ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء: ١٠١]

- ورخص للمحدِث التيمم عند فقْد الماء أو تعذر استعماله، ولم يأمره بإعادة الصلاة؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة: ٦].

إلى آخر تلك الرخص الشرعية التي دلت دلالة واضحة على وسطية الشريعة، وأسهمت إسهاما عظيما في بناء فكر المسلم على التيسير، والرفق واللين، وتبني الآراء المعتدلة، وانتهاج الوسطية في كل شؤونه.

٣ـ الأمر بالتوسط في كثير من العبادات: ومن ذلك:

ـ الأمر بالتوسط في الإنفاق: حيث نهى الله تعالى عن الإسراف، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤١]. ونهي عن التبذير، فقال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ بالإسراء: ٢٦ – ٢٧]. ونهى عن التقتير، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وحث على التوسط، فقال تعالى فيه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧]. حيث مدح الله تعالى عباده (عباد الرحمن)، بأنهم إذا أنفقوا توسطوا، فـ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ أي: يُفْرِطوا في الإنفاق، ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾ أي: يُفَرِّطوا، وكان إنفاقهم قواما.

و"القَوام هو الاعتدال، وهو في كل إنسان بحسب عياله، وحاله، وخفة ظهره، وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوسطها، ولهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر يتصدق بجميع ماله؛ لأن ذلك وسط بالنسبة إلى جلده وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك"(١).

- وأمر الله تعالى أن تكون النفقة من الطيِّب لا من الخبيث: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٧].

وفي هذا تربية عظيمة لفكر المسلم على الوسطية السمحاء، حيث لم يأمرنا الله تعالى بإنفاق كل أموالنا، لنعيش بعد ذلك فقراء معدمين، كما لم يبح لنا البخل بها أو كنزها وإمساكها، لنحرم أنفسنا وغيرنا من خيرها وثوابها، وإنما أمرنا بالتوسط في الإنفاق، ومن الطيب لا من الخبيث.

٤ـ تقريره التوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة:

حيث نهى القرآن الكريم عن تحريم ما أحله الله تعالى من الطيبات، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[المائدة:٨٧].

وحث الإنسان على التوازن بين طلب الدنيا وطلب الآخرة، فقال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ

(١) المحرر الوجيز: ٤/ ٢١٩، ٢٢٠، ونحوه قال أبو حيان في البحر: ٨/ ١٢٨.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ٩ – ١٠].

وهكذا تجلت الوسطية في كل أبواب الشريعة، فلا تجد بابا من أبوابها إلا والوسطية حاضرة في أصوله ماثلة في فروعه، مما كان له بالغ الأثر في بناء الفكر الإسلامي على الوسطية والاعتدال.

ثالثا: تقرير القرآن لوسطية الأخلاق وأثره في بناء الفكر الإسلامي

ظهر مما سبق تقرير القرآن الكريم لوسطية العقيدة والشريعة، وأنهما كانا أساسا في بناء الفكر الإسلامي على الوسطية والاعتدال، وبقي أن نبين ههنا تقريره لوسطية الأخلاق، وأثره في بناء الفكر الإسلامي.

وبداية أقول: لقد كانت أخلاق الإسلام –وما زالت– خير سفير له؛ لأنها مظهره الوسطي الذي يتجلى في الحياة سلوكا حضاريا، وخلقا إنسانيا، وتاريخ الإسلام شاهد صدق على أن بقاعا كثيرة فتحت بأخلاق المسلمين لا بجيوشهم، ودخلت أمم في دين الله أفواجا بفضل تعرفهم على أخلاق الإسلام الفاضلة، وتعاليمه السمحة. لهذا كان لوسطية الأخلاق أثر عظيم لا يخفى في بناء في الفكر الإسلامي.

وفيما يأتي إجمال لمعالم تلك الوسطية كما قررها القرآن الكريم:

١ـ موافقتها للفطرة القويمة وللعقل السليم:

ذلك لأن الفطرة والعقل –السليمين– ينادیان بتلك الأخلاق، ولا يتعارضان معها مطلقا، بل لا تجد خلقا قرآنيا إلا وجدت الفطرة والعقل ماثلين فيه، وهذا من أظهر معالم وسطية الأخلاق.

وقل لي بربك: ألا تتفق الفطرة والعقل مع أمر القرآن الكريم بالصبر عند وقوع المصيبة؟!

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ

وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٧]. إن الإنسان في هذه الحالة في أمس الحاجة فطريا وعقليا إلى الصبر والهدوء والاطمئنان، حتى لا يخسر نفسه كمدا وجزعا.

وقل لي بربك: ألا تتفق الفطرة والعقل مع أمر القرآن الكريم بالعدل ولو وقع الحق على النفس أو الوالدين أو الأقربين؟!! ألا يتفقا مع هذا السمو الأخلاقي الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقل لي بربك: ألا تتفق الفطرة والعقل مع أمر القرآن الكريم بالعدل حتى لو كان مع المخالف أو العدو، والذي يقول الله تعالى فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨].

ولهذا قال الله تعالى عن هذا الدين الحنيف بعقيدته وشريعته وأخلاقه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠].

هذه نماذج قليلة، ودونك كل أخلاق القرآن الكريم، تجدها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفطرة السليمة والعقل الصحيح، ولهذا أعظم الأثر في بناء فكر المسلم؛ لأنه في تلك الحالة مأمور بما تنادي به فطرته ويدعو إليه عقله، وهذا مما ذلل عملية الالتزام والتطبيق في واقع الحياة، وجعلها خفيفة على النفس محبوبة للقلب.

٢ـ شمولها لكل المكلفين:

فأخلاق الإسلام ليست خاصة بأحد دون أحد، ولا بطبقة دون طبقة، ولا بفئة دون فئة، إنها تشمل كل المكلفين، رجالا ونساء، أفرادا وجماعات، أغنياء وفقراء، رؤساء وخفراء، فليس لعِلْية القوم أخلاق، ولفقرائه أخلاق، وذلك واضح في كل الآيات التي تناولت الأخلاق؛ حتى التي جاءت بصيغة الإفراد فإنها مراد بها الجمع؛ لأن العبرة بعموم اللفظ. ومن ذلك:

- قوله تعالى في الوفاء بالعهد: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقوله تعالى في الأمر بالعدل: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وقوله تعالى في التعاون على البِرِّ والتقوَى والنهي عن التعاون على الإثم والعُدْوان: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢]. وقوله تعالى في النهي عن السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، والظن السيء، والتجسس، والغيبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١١، ١٢]. فالأمر في ذلك كله شامل كل المكلفين دون تمييز.

وما جاء منها بصيغة الإفراد من مثل قوله تعالى في الأمر بالصبر: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٥]. وقوله تعالى في الأمر بالتوكل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧] مراد به كل المكلفين أيضا، ولم يقل أحد إن الأمر بالصبر أو التوكل أو غيرهما مما جاء الأمر به بصيغة الإفراد خاص بالنبي ﷺ، أو بأحد من أمته.

وهكذا سائر الآيات الكريمة التي تناولت الأخلاق، الأمر فيها عام والتوجيه فيها شامل لكل المكلفين، وهذا من معالم وسطيتها التي بني عليها الفكر الإسلامي.

٣ـ ثبوتها، فلا تتغير بتغير الزمان أو المكان:

إذ لم يحددها القرآن الكريم بأزمنة معينة، ولا بمواقف معينة، ولا بأماكن معينة، وإنما جعلها ثابتة راسخة لا تتغير، صالحة لكل زمان ومكان، وجعل الأمر بها والحث عليها مستمرا إلى يوم الدين، ولهذا جاءت بصيغ تدل على الحال والاستقبال.

فوردت بصيغة الأمر أحيانا، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة: ١]، وبصيغة المضارع أحيانا أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١ ﴾[الرعد: ٢٠، ٢١]، وبصيغتي الماضي واسم الفاعل اللذين يفيدان الحال والاستقبال والمضي، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥ ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]. إلى غير ذلك من الشواهد القرآنية التي تدل على أن الأمر بالأخلاق ثابت لا يتغير بتغير الأحوال أو الزمان أو المكان.

وهكذا قرر القرآن الكريم وسطية الأخلاق، لتقوم مع وسطية العقيدة والشريعة أركانا ثلاثة في بناء الفكر الإسلامي على الوسطية والاعتدال.

وبعد، كان هذا بيانا موجزا لمنهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا على مبادئ الوسطية والاعتدال التي قام عليها الدين، وقد ظهر من خلال ذلك عظمة هذا المنهج وسموه ورقيه.

وما ظهور تلك التيارات الفكرية المنحرفة في مجتمعنا إلا نتيجة حتمية لبُعد أصحابها عن هذا المنهج القرآني العظيم.

الخـــاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. **وبعد**،

فقد انتهيت بحمد الله تعالى وتوفيقه من هذه الدراسة، (**معالم منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا**) وتوصلت إلى العديد من النتائج، والتي من أهمها:

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

١- أن بناء القرآن للإنسان بناء فكريا يعني: "إعداد المسلم عقليا وروحيا إعدادا وسطيا، يؤهله لتكوين عقيدة صحيحة عن الدين والدنيا والآخرة، ويحصنه ضد التيارات المنحرفة، ويعينه على بناء تصور سليم وإجابة شافية عن كل جديد في الحياة".

٣- إن بناء القرآن للإنسان فكريا له أهمية عظيمة تتجلى في جانبين: أولهما: هدايته إلى الصراط المستقيم، على المنهج الوسطي عقيدة وشريعة وأخلاقا، وثانيهما: تحصينه من التيارات المنحرفة.

٤- أن للوسطية في حياة المسلمين أهمية كبرى تنبع من مكانة الإسلام ذاته في قلوبهم؛ لأنه دين الوسطية.

٥- أن الانحراف الفكري يعني: "الميل أو العدول عن حد الوسط والاعتدال، إفراطا أو تفريطا، في كل ما يسلكه الإنسان في معتقداته وتصوراته في جانب الدين أو جانب الدنيا، أو فيهما معا".

٧- أن منهج القرآن في بناء الإنسان بناءً فكريا يقوم على ثلاثة معالم رئيسة: أولها: العناية بالعقل. وثانيها: تعظيم أصول الدين. وثالثها: الوسطية والاعتدال.

٨- تجلت عناية القرآن بالعقل -المعلم الأول من معالم بناء الإنسان فكريا- في جانبين رئيسين: أولهما: جانب التكليف والتشريف. والثاني: جانب المحافظة والتهذيب.

٩- تجلى جانب التكليف والتشريف في جعل العقل مناطَ التكليف، وكان لذلك الدور الأعظم في بناء فكر المسلم، وتكوين وعيه؛ إذ بالعقل يفهم عن الله تعالى مراده، وبه يعرف الحلال

من الحرام، وبه يعرف كيف يطبق شرع الله. وهذا يؤسس لقاعدة عظيمة هي أن الفكر الإسلامي يقوم على احترام العقل وتقديره، واعتباره قرينا للشرع.

١٠- تجلى جانب المحافظة على العقل وتهذيبه في ناحيتين: ناحية الحفظ والوقاية، وناحية التربية والرعاية.

١١- تمثل حفظ القرآن للعقل ووقايته في حفظه ماديا: بأن شرع له ما يحفظ وجوده، وما يحفظ صحته وسلامته، فحرم الاعتداء عليه بالإهلاك، وحرم كل ما يحجبه ويغيبه. وفي حفظه معنويا: بأن شرع له ما يحفظه من الخلل والاضطراب فحرَّم السِّحر، وما يندرج تحته من الدجل والشعوذة وغيرهما.

١٢- تمثلت تربية القرآن ورعايته للعقل في: تحريره من التقليد والتعطيل، وتربيته على المنهج العلمي الصحيح، القائم على الحجج والبراهين، وحثه على كل ما ينمِّيه ويزكِّيه، من الحث على النظر والتفكر في آيات الله تعالى، والحث على طلب العلم، وبيان حدوده التي لا يجوز له تجاوزها، حفاظا عليه من الفساد، ورحمة به من التكليف بما لا يطاق.

١٣- أن تعظيم القرآن لأصول الدين يعني احترمها وإجلالها وتقديسها، ووجوب اتباعها، والوقوف عند حدودها، وحرمة مخالفتها. وهذا هو الذي يحفظ الفكر من الانحراف إفراطا أو تفريطا، وهو الذي يصونه من الوقوع في براثن التيارات الفكرية المخالفة.

١٤- لمنهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا على تعظيم أصول الدين جوانب أربعة: أولها: الأمر بالاعتصام بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتحذير من مخالفتهما. والثاني: التمسك بالإجماع والقياس، والثالث: وجوب الرجوع لأهل العلم بالدين. والرابع: تحريم الخوض في الدين بغير علم.

١٥- تضمن منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا على الوسطية والاعتدال جانبين رئيسين، **أولهما**: بيانه لمعاني الوسطية، **وثانيهما**: تقريره لوسطية الدين (عقيدة وشريعة وأخلاقا).

١٦- قرر القرآن وسطية العقيدة لأهميتها البالغة، ولأثرها العظيم في بناء فكر المسلم، لأن الفكر ناشئ عن العقيدة، يصلح بصلاحها، ويفسد بفسادها. وقد تجلى ذلك في: . اعتدالها، فلا غلو فيها ولا تقصير، وفي وضوحها ويسرها وواقعيتها.

١٧- قرر القرآن وسطية الشريعة لأهميتها البالغة، ولأثرها العظيم في بناء فكر المسلم؛ فقرر التيسير والتخفيف على الأمة، ورفع الحرج عنها، وعدم التكليف بما لا يطاق، كما قرر كثيرا من الرخص الشرعية.

١٨- قرر القرآن وسطية الأخلاق لأهميتها البالغة، ولأثرها العظيم في بناء فكر المسلم؛ وقد تجلى ذلك في موافقتها للفطرة السليمة وللعقل الصحيح، وشمولها لكل المكلفين، وثبوتها، فلا تتغير بتغير الزمان أو المكان.

وأخيرا: أوصي نفسي والمسلمين بالتزام منهج القرآن الكريم في كل الجوانب، ومنها منهجه في بناء الإنسان فكريا؛ لأن ما تعانيه أمتنا في عصرها الحاضر من انحراف بعض أبنائها عن المنهج القويم إفراطا أو تفريطا لهو أثر من آثار بُعدهم عن هذا المنهج العظيم، بما لا يخفى على عاقل، ولا ينكره منصف.

والله أسأل أن ينفعني بهذا العمل، وأن ينفع به كل من يقرؤه، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، والحمد لله في الأولى والآخرة. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * * * *

ثبت المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم .... تبارك الذي نزله

ثانيا: كتب التفسير وعلوم القرآن:

١ أحكام القرآن لابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب، العلمية، بيروت – لبنان، الثالثة، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م.

٢ أحكام القرآن للجصاص، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، ط/ دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٣ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: للإمام أبي السعود، ط/ دار إحياء التراث العربي– بيروت – بدون تاريخ.

٤ البحر المحيط في التفسير: للإمام أبي حيان، صدقي جميل، ط/ دار الفكر – بيروت – الأولى ١٤٢٠هـ.

٥ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين الفيروز أبادي، تحقيق: محمد علي النجار. ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الثالثة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٦ التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٧ تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير، تحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي، الناشر: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧م.

٨ التسهيل لعلوم التنزيل: لأبي القاسم ابن جزيء الكلبي تحقيق: د/ عبد الله الخالدي، ط/ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الأولى، ١٤١٦ هـ.

٩ التفسير البسيط للإمام الواحدي، ط/ عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ

١٠ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩هـ.

١١ تفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٢ تفسير القرآن للإمام السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

١٣ التفسير الكبير: للإمام الرازي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثالثة ١٤٢٠هـ.

١٤ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٢٠ه، ٢٠٠٠م.

١٥ الجامع لأحكام القرآن: للإمام القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، ط/ دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

١٦ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الألوسي البغدادي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤١٥ه.

١٧ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام الشوكاني، ط/ دار ابن كثير، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ.

١٨ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام الزمخشري، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة – ١٤٠٧ه.

١٩ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للإمام ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط/ دار الكتب العلمية، لبنان، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٠ مدارك التنزيل وحقائق التأويل تحقيق: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

٢١ معالم التنزيل للبغوي تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٢ معاني القرآن للأخفش تحقيق: هدى محمود قراعة، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م.

٢٣ معاني القرآن وإعرابه: للإمام أبي إسحاق الزجاج تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، ط/ عالم الكتب، بيروت، الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.معترك الأقران

٢٤ المفردات في غريب القرآن: للإمام الراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط/ دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ.

٢٥ النكت والعيون: للإمام أبي الحسن الماوردي، تحقيق: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

ثالثا: كتب الحديث الشريف وشروحه:

٢٦ سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م.

٢٧ سنن الترمذي للإمام أبي عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٢٨ شرح النووي على صحيح مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، للإمام النووي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثانية، ١٣٩٢هـ.

٢٩ شعب الإيمان: للحافظ أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، ط/ مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م.

٣٠ صحيح البخاري: للإمام البخاري، تحقيق: د/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط/ دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣١ صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ط/ دار

إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

٣٢ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ه.

٣٣ المستدرك على الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١١ه، ١٩٩٠م.

٣٤ مصنف عبد الرزاق تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، ط/ المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٣٥ المعجم الأوسط للطبراني تحقيق: طارق بن عوض اللهؒ وعبد المحسن الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

٣٦ المعجم الكبير للطبراني، تحقيق فريق من الباحثين، الطبعة الأولى.

٣٧ الإجماع لابن المنذر تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى لدار المسلم، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٨ الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- لبنان.

٣٩ إرشاد الفحول للشوكاني، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٠ أصول السرخسي لشمس الأئمة السرخسي، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

٤١ إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤٢ البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٤٣ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني الحنفي، ط/ دار الكتب العلمية، الثانية،

١٤٠٦هـ، ١٩٨م.

٤٤ الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، للإمام الماوردي، المحقق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩م.

٤٥ الرسالة القشيرية للإمام القشيري، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

٤٦ الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤٧ علم أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف، الناشر: مكتبة الدعوة - شباب الأزهر الطبعة: الثامنة لدار القلم.

٤٨ قوت القلوب للإمام أبي طالب المكي، المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥م.

٤٩ الكبائر لشمس الدين الذهبي، الناشر: دار الندوة الجديدة - بيروت.

٥٠ كشاف القناع عن متن الإقناع للبهوتي الحنبلي، ط/ دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

٥١ المبسوط للسرخسي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة: بدون تاريخ.

٥٢ مدارج السالكين لابن القيم، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

٥٣ المستصفى من علم أصول الفقه للإمام الغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٥٤ المغني لابن قدامة المقدسي، ط/ مكتبة القاهرة الطبعة: بدون تاريخ.

٥٥ مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور، المحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.

٥٦ المهذب في فقه الإمام الشافعي لأبي إسحاق الشيرازي، ط/ دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

٥٧ الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.

رابعا: معاجم اللغة واصطلاحات الفنون:

٥٨ أساس البلاغة للإمام الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٩ه، ١٩٩٨م.

٥٩ تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط/ دار الهداية.

٦٠ التوقيف على مهمات التعاريف: لزين الدين المناوي القاهري، ط/ عالم الكتب، القاهرة، الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٦١ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للإمام الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، بيروت، الرابعة، ١٤٠٧ه، ١٩٨٧م.

٦٢ القاموس المحيط: للفيروزآبادي تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط/ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م.

٦٣ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي الحنفي، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت.

٦٤ لسان العرب، للإمام محمد بن منظور الأفريقي المصري، ط/ دار صادر، بيروت، ط/ ١، بدون تاريخ.

٦٥ معجم مقاييس اللغة: لابن فارس تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/ دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

*****

فهرس الموضوعات

م	الموضـــوع	الصفحة
١	**المقدمة :** وتضمنت أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وخطته	٨
٢	**المبحث الأول : حول البناء الفكري للإنسان.**	١٠
٣	**المبحث الثاني : معالم منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان فكريا**	١٨
٤	المطلب الأول: المعلم الأول: العناية بالعقل	١٩
٥	المطلب الثاني: المعلم الثاني: تعظيم أصول الدين.	٣٦
٦	المطلب الثالث: المعلم الثالث: قيامه على الوسطية والاعتدال.	٥٥
٧	**الخاتمة : وتشتمل على أهم النتائج..**	٧٣
٨	**ثبت المصادر والمراجع**	٧٦
٩	**فهرس الموضوعات.**	٨٢